مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة علمية محكمة تصدر ربع سنوياً

التحيز المعرفي للنموذج المادي الغربي بدعوى الموضوعية "تحديات ثقافية"

رزق عبد الجواد الجعيدي

محاضر بكلية التربية – قسم الدراسات الإسلامية

العدد: الخامس

يناير 2021

المستخلص

اعتنت هذه الدراسة بقضية (التحيز) التي هي من أهم القضايا البحثية في المناهج والنماذج المعرفية والمقاييس والأدوات البحثية، وهي قضية شائعة في نطاق العلوم الإنسانية وإشكالية تخص هذا المجال البحثي، فليس الأمر مضاهٍ لما هو عليه من تجريد صارم وموضوعية دقيقة في مجال الطبيعيات والتجريبيات. وانصب جل الاهتمام على تحيز المجتمعات العربية والإسلامية للنموذج المعرفي المادي الغربي، فحاولت الدراسة أن توضح وجود قيم كامنة واستعارات مضمنة في النماذج الكلية والجزئية تعبر عن تحيز ثقافى معرفي غربى ليس بالضرورة متوافقا مع خصوصيتنا، بل أحيانا يمثل قطيعة معرفية.

ولم يكن بد من إزاحة القناع عن دعوى الموضوعية والعلمية التي يضفيها النموذج الغربي على ذاته ليخترق الأمم ويشكل ثقافة الشعوب وفق رؤية مادية غربية تشكل محتوى حضاري محدود لا يحمل في حقيقته صفة الكونية أو الحيادية المتجردة.

واستشهدت الدراسة بالعديد من البحوث التي أثبتت إشكالية وصعوبة الموضوعية المجردة في نطاق العلوم الإنسانية. وأظهرت أن التحيزات القيمية والأيديولوجية سمة غالبة لكافة البحوث في هذا المجال الإنساني، وهى تحيزات متخفية وكامنة، وتحدد بداية اختيارات الباحث ومسارات البحث وتؤثر في نتائجه.

وهذا بطبيعة الحال استدعى موقفا علميا وحضاريا وفكريا ينبه على ضرورة إبداع نماذج معرفية تنطلق من عقيدة التوحيد. والتي لها ثنائية الروح والجسد، الدنيا والآخرة، المحسوس في الوجود والموجود في عالم الغيب، على أن يكون لهذا النموذج المعرفي من الإبداع ما يسد الحاجة العلمية ويفسر الظواهر الكونية ويتعامل مع متطلبات الإنسان بصفته مخلوقا ثنائى البعد؛ وليس مختزلا في بعد مادى جامد.

الكلمات المفتاحية: التحيز – الموضوعية – النماذج المعرفية – الأنساق الاستعارية – القيم – الأيديولوجيا – الحداثة

Abstract

This study took care of the issue of (bias), which is one of the most important research issues in curricula, cognitive models, standards and research tools, and it is a common issue in the field of humanities and a problem related to this research field. Most of the attention was focused on the bias of Arab and Islamic societies to the Western materialistic cognitive model, so the study tried to clarify the existence of latent values and metaphors embedded in the macro and partial models that express a Western cultural cognitive bias that is not necessarily compatible with our privacy, but sometimes represents a cognitive rupture.

It was not necessary to remove the mask from the objective and scientific claim that the Western model confers on itself to penetrate nations and form the culture of peoples according to a Western materialistic vision that constitutes a limited civilizational content that does not, in fact, bear the character of universality or impartiality.

The study cited many researches that proved the support of abstract objectivity in the field of human sciences. It showed that value and ideological biases are a dominant feature of all research in this human field, and they are hidden and latent biases, and they determine the beginning of the researcher's choices and research paths and affect his results.

This, of course, called for a scientific, civilized and intellectual position that warns of the need to create cognitive models that stem from the doctrine of monotheism. Which has the duality of soul and body, the world and the hereafter, tangible in existence and existing in the world of the unseen, provided that this cognitive model of creativity meets the scientific need and explains cosmic phenomena and deals with the requirements of man as a two-dimensional creature; It is not reduced to a rigid material dimension.

Keywords: bias - objectivity - cognitive models - metaphorical patterns - values - ideology - modernity.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي لها. وصلاة وسلام على معلم الناس الخير والهادي إلى وإلى طريق مستقيم خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا، واجعل اللهم معونتك العظمى لنا سببا، ووفقنا لما تحب وترضى.

وبعد:

فإن التحيز يمثل ركيزة النظرية المعرفية المادية الغربية بنماذجها الكلية والجزئية وقيمها وأنساقها التصورية الاستعارية وما تحويه من الانفصال عن القيم الروحية والأخلاقية وانتمائها للمحسوس التجريبى واعتمادها السببية الصلبة أداة تفسيرية وتحليلية فضلا عنن نفى الوحى ووضعه خارق سياق العلم والمعرفة وتقديس العقل والاكتفاء به أداة لمعايرة المحسوس الوضعى وكفه عن المثاليات والماورائيات، بالإضافة إلى رفض أي تفسير للوجود من خارج الإطار المادى . ونتج عن ذلك (النموذج الواحدى الاختزالى المادى) الذى لا يؤمن بالثنائية المخلوقية الكونية (الروحى والمادى – الإنساني والطبيعى) فدمج هذا النموذج كل هذه الثنائيات في بعد مادى وحيد ورد كل اختلاف إلى تفاعلات مادية، وجعل للعلم وحده القدرة على تفسيرها ولا محرك لهذا المادة من خارجها بمعنى أوضح نفى الوجود الإلهى، وباتت القيم الأخلاقية والجمالية غير ذات معنى أمام البرجماتية النفعية.

ولقد امتد تأثيرهذه النظرية في عالمنا العربى والإسلامى تحت دعوى الحداثة حتى تولد منه الاتجاه الحداثوى العربى هذا الاتجاه الذى تحيز لمقولات الحداثة الغربية متوهما أنها ستؤتي أكلها وتنجز ما أحرزته في بيئتها، ولم يكن سياق استدعاء هذا الاتجاه الحداثوى في وقعنا العربى والإسلامى إلا بدعوى موضوعيته وكونيته وعلميته وارتسامه فى التصور والوعى منهجا وحيدا للعلم الموضوعي والنهضة الحضارية. كذلك لم تكن تلك الدعوى العارية من الصحة مجرد طرح لمن يسترشد بها، بل اعتبر مخالفها ضد التقدم الإنسانى غارقا في وهم الأيديولوجيات البائسة أو الميتافيزيقيا الدينية المانعة من التقدم. وبلغ الأمر بدعوى موضوعية

الحداثة الغربية حد أن لها ما يشبه الحق في إصدار صكوك غفران وقرارت حرمان لمن لا ينطوى تحت مقولاتها.

في غمرة هذا الطوفان الهادر اتجه كثيرون ممن رأوا من دون البريق الخادع والمزاعم الرائجة سوءات هذه النظرية المعرفية المادية بنماذجها، فتوالت الأبحاث تنبه وتفند وتوجه الانتقادات، ومن ثم جاء هذا البحث ليأخذ موضعا في هذاالاتجاه مختصا بإشكالية بحثية من بين العديد من إشكاليات هذه الطروحات الثقافية.

أهمية البحث:

شكل التحيز لمقولات النظرية المعرفية المادية الغربية بما تشمله من نماذج وما تحويه من مقولات وما تدعية من مزاعم تحديا لخصوصيتنا الثقافية التي لا ترى في اى وافد يحمل صفة العلم ويمثل مشتركا إنسانيا وجودا أي تعارض يمنع من تمثله من حيث المبدأ، إلا أن هذا الوافد – الذى نحن بصدده – ينفى صراحة ثقافتنا، وعلى قطيعة معرفية مع مصادرنا وفى مواجهة حثيثة بلغت حد الغزو الثقافي باستعاراته التصورية الذهنية التي تعنى حذف الآخر أو حشره في زواية ضيقة مهملة.

عند هذا الحد كان لزاما التصدي والرفض المؤسس على المنهاجية الثقافية الإسلامية لهذه النماذج الاختزالية المادية التي مسخت الوجود الإنسانى، واستبعدت أو على الأقل همشت قيم الجمال والأخلاق واستبعدت علم الوحي، وكان لا مفر من مواجهة التعصب للمناهج الرياضية الفيزيائية وتطبيقها في مجال الإنسانيات بحساب اللذة والمنفعة، ورؤيتها على أنها نماذج ماسخة ماحقة للمعنى، التحيز لها خطيئة والسعى لاكتشافها ورصد قيمها لتجنبها فريضة انتصارا للإنسانية وقياما بالواجب الدينى في مواجهة زحف المادية الطاغية.

أهداف البحث:

- يهدف البحث إلى تسليط الضوء على قضية التحيزات (أساساً الغربية) الكامنة في مصطلحاتنا ومناهجنا وأدواتنا البحثية وقيمنا، واقتراح مصطلحات ومناهج وأدوات وقيم معرفية بديلة لها طابع نظريتنا المعرفية وقيمنا الثقافية تكون أكثر حيادية وموضوعية في المشترك الإنسانى.
- كما يهدف إلى إيقاظ الوعي بضرورة اكتشاف النموذج المعرفى الغربي وتفكيكه وتوضيح هويته.
- ومن بين أهداف البحث الدعوة إلى تتبع المقاييس والمناهج والنماذج المتحيزة للرؤية الغربية السائدة في دراساتنا وإعادة اختبار كافة مقاييسها المفاهيمية بدل التسليم لها أو قبول نتائجها. حيث لم يعد مقبولا أن نطالع مقاييس تتخذ مثلا من " اللحاق بالغرب " مقياسا للتقدم بكافة أنواعه فيصبح التقدم

مفهوما يفترض الغرب كنقطة يجب أن نصل إليها وكقيمة مطلقة يجب تبنيها. أو عندما تتجلى تلك القيم الدخيلة بمفاهيمها المعرفية في نفوس بعض الباحثين العرب فيستخدم كمقياس للتخلف والتقدم عدد ساعات سماع الموسيقى السمفونية (المسيري. 1998، ص11).

- وأيضا يهدف البحث إلى إثبات أن المناهج الغربية التي يتم استخدامها ليست محايدة تماما، وهي تعبر عن مجموعة من القيم التي تحدد مجال رؤية ومسار البحث، وتقرر مسبقا الكثير من النتائج.

منهج الدراسة:

- التزمت الدراسة بالمنهج الاستقرائى لإتاحة تقديم رؤية كلية تكون بمثابة نتيجة معتمدة على جزئيات تفصيلية تكسب يقين الاستنباط ومصداقية التعميم حول مسألة التحيز والموضوعية في العلوم الإنسانية.
- كما دمجت الدراسة بين المنهج الوصفى والتحليلى باعتبار وصف ظاهرة التحيز ودعوى الموضوعية يثير العديد من التساؤلات والاعتراضات ومن ثم يكون الدور التحليلى هو الأساس في معالجة ذلك من خلال تفكيك ظاهرة التحيز وإحاطتها بالنقد والتقويم وصولا إلى إعادة بلورة القضية من خلال تركيب استنتاجى من منظور الثقافة الإسلامية.

إشكالية البحث:

- أولى هذا البحث عناية بالعلاقات التى تشكل محاور الحالة المعرفية والثقافية للتحيز للنموذج الغربي على وجه العموم وفى واقعنا الإسلامي على وجه الخصوص، وكان من لازم هذه التتبع لتلك العلاقات أن يتناول البحث إشكاليات عديدة مُمثلة في حقيقة التحيز لا بوصفه تحيزا وإنما بدعواه الموضوعية، وكان ذلك يثير تساؤلات حول إمكانية الموضوعية من الأساس في العلوم الإنسانية أو الثقافية، واستتْبعت تلك الخطوات البحثية بالضرورة طرح التحيز للثقافة الإسلامية في واقعها وبيئتها وتحت مظلتها المعرفية مع ضرورة الاجتهاد الفكرى لاستنبات المناهج وإبداع النماذج والأدوات البحثية في التربة الإسلامية.

أسئلة الدراسة:

- هل التحيز المعرفي أمر حتمي في الفكر الإنساني ؟
- هل بالإمكان تحقق الموضوعية في العلوم الإنسانية كما تحققت في العلوم الطبيعية ؟
- كيف يمكن إبداع نماذج معرفية مستنبة من خصوصيتنا الثقافية ؟
- ما أهم سمات النماذج المعرفية الإسلامية ؟

محاور البحث

اشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة محاور وخاتمة وكان ذلك على النحو التالى:

- مقدمة : وقد جاءت متضمنة أهمية الموضوع وإشكالية البحث و أهدافه وتساؤلاته ومنهج الدراسة.

واحتوى البحث ثلاثة محاور:

- **المحور الأول: التحيز المعرفى والقيم الكامنة والاستعارات التصورية في العلوم الإنسانية**

وهذا المحور تناول العديد من النقاط:

- التحيز الفكرى حقيقته وضرورة رصد نماذجه وقيمه.
- القيم الكامنة في النماذج الغربية والاستعارات التصورية المتحيزة .
- هيمنة النموذج المعرفى الغربى ومآلات التحيز لقيمه المادية.

- **المحور الثاني: تحيز النموذج المعرفى المادى الغربى وتفنيد دعوى موضوعيته**
  - الموضوعية مفهومها وزعم تمثلها في النموذج المعرفى الغربى
  - النموذج المعرفى الغربي تحيزه وتفنيد موضوعيته.
  - مقاربات لإشكالية الموضوعية في العلوم الإنسانية.

- **المحور الثالث: التحير للنموذج الإسلامي حتمية ممانعة ومنهجية نقدية**
  - التحيز للنموذج المعرفي الإسلامي مفهومه وحتميته.
  - تأسيس فقه التحيز وأهدافه.
  - النموذج المعرفى الإسلامي ضرورة الإبداع وسماته الثقافية.

- **الخاتمة والتوصيات**.

تمهيد مفاهيمي:

الوعي بالمفاهيم وأهميتها المركزية في تشكيل وتنمية المعارف والعلوم الإنسانية وإدراك مبانيها ومعانيها أمر لا محيص عنه إذا أردنا نهضة فكرية، فالبدء بتحرير المفاهيم هو أهم خطوة للإبداع الفكرى والتوليد الاجتهادى الريادي.

وتأتى ضرورة الضبط المفاهيمى من جراء مخاطر توظيفها السلبى في البيئة الإسلامية بفعل الضغط الحداثى العلمانى الغربى الذى تشعب في كافة المجالات البحثية، ومن الضرورى إذن التعرف على أهم المفاهيم الواردة بهذه الدراسة:

مفهوم التحيز:

أصل التحيز في اللغة: تحيوز فقلبت الواو لمجاورة الياء وأدغمت فيها. وانحاز بمعنى: ترك مكانه إلى موضع آخر، وتحوز عنه وتحيز إذا تنحى

وتحيَّزَ إليهم: انضمَّ ووافقَهم في الرَّأْي.

وفي التنزيل العزيز (وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغضَبٍ مِنَ اللهِ). (الأنفال آية 16) ويقال: هو متحيِّزٌ لفلانٍ: منضمٍّ إليه موافقٌ له في الرأْي.

والانحياز الفكري : "هو ميل إلى تأييد نظرية (أو فرض) أو رفضها نتيجة لتأثر سابق موجه للحكم الذى يصدره الشخص على القضايا" (حسين شحاته، زينب النجار، 2003، ص 126). " وكل واقعة ثقافية تعبر عن نموذج معرفي فهذا هو المعنى المقصود للتحيز" (المسيري، إشكالية التحيز، 1998، ص 16).

مفهوم النموذج المعرفي:

يتداول النموذج المعرفي في مجال الفكر والفلسفة والعلوم الإنسانية، ويعود اشتهاره إلى "توماس كون" صاحب الكتاب الشهير: "بنية الثورات العلمية".. ويعد النموذج المعرفي هوالذي يحاول الوصول إلى الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني، وهو يدور حول ثلاثة عناصر معرفية كبرى هي؛ (الإله/ الإنسان/ الطبيعة) يمكن القول أن لكل نموذج إدراكي بعد معرفي، يحدد مرجعته النهائية ومعتقداته وفروضه ومسلماته، بمعنى آخر النموذج المعرفي يشكِّل البعد الغائي والأساس العميق الذي تُطرح من خلاله الأسئلة الكلية والنهائية للنموذج الإدراكي.وقد عبر عنه احد العلماء بالقولان النموذج المعرفى هو: ماذا بالامكان فعله عندما تغيب النظرية؟ (الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية).

ويعرفه المسيري (1996: 17،16) بأنه: صورة عقلية مجردة ونمط تصوري وتمثيل رمزى للحقيقة، وهو نتيجة عملية تجريد (تفكيك وتركيب) إذ يقوم العقل بجمع بعض السمات من الواقع فيستبعد بعضها ويبقى

بعضها الآخر، ثم يقوم بترتيبها بحسب أهميتها ويركبها وقد يضخمها بطريقة تجعل العلاقات تشكّل ما يتصوره العلاقات الجوهرية في الواقع .

ونفهم من ذلك أن البعد امعرفي هو أساس تركيب النموذج ويمثل المعايير الداخلية من معتقدات ومسلمات وقناعات ورؤية معرفية للكون والحياة وهذا ما يجعل للنموذج قيمة غائية، فيستبعد ويستبقى ويختزل ويضخم ويفكك ويركب ويعطى الإجابات النهائية الكلية، كالغاية من الوجود وحقيقة الموجود ونظرته لما بعد الوجود.

مفهوم الموضوعية

تشير دلالة (الموضوعية) في العلوم الإنسانية إلى الامتناع عن التأثر بالتحيزات الذاتية والثقافية، ويعرف ذلك بالدلالة السلبية إذ يقصد بها انعدام أثر عوامل التحيز وكف المتغيرات الخارجة عن الموضوع بقصد التجرد من الدوافع والقيم والعرف والوضع الاجتماعي وعزلها تماما في تناول القضية البحثية أو النقطة الدراسية.

وعلى هذا التصور فإن الموضوعية هي المشكلة المحورية للعلوم الإنسانية، وكل من يعرض لها لا يعرض إسهاما في بلورتها بل يعرض من جهة وصف الصعاب التي تحول بين الباحث وبينها وكيف يمكن التغلب على تلك المصاعب لتبلغ العلوم الإنسانية مبلغ العلوم الطبيعة دقة ونهائية.

وتفترض الموضوعية إمكانية إيجاد منهج علمي منضبط ذو مقدرة للوصول للحقائق المجردة في العلوم الإنسانية، يشترك فيه كافة الباحثين ويؤدى إلى نفس النتيجة مهما اختلفت مشارب التناول وتنوع الثقافات لدى الباحثين، على غرار العلوم الطبيعية.

وهذا المنهج يمكن الباحث من تصوير الحقائق الموضوعية تصويرا دقيقا صحيحا، وبالشكل الذى تقتضيه تلك الحقائق، وكذلك تفسيرها، وأن كل ذلك يمكن للمنهج العلمى أن يفعله بقطع النظر عن هوية الباحث ومعتقداته ورؤيته الكلية ومصالحه وأهوائه. (العلواني، طه جابر 1996)

المحور الأول:

التحيز المعرفي والقيم الكامنة والاستعارات التصورية في العلوم الإنسانية

- **التحيز الفكري حقيقته وضرورة رصد نماذجه وقيمه.**

يمكن تصور مفهوم **(التحيز)** من خلال التفاعل بين الباحث والحياة الاجتماعية، فإنه لابد أن يخلق في معظم الأحوال مواقف لا تدعونا فقط إلى نسبية صدق الأقوال والأحكام بل وإلى النظر في تأثيرها الفعلى بما صدرت في نطاقه من مواقف اجتماعية. وفى تأثيرها النشط على تطورات هذه المواقف في المستقبل. فقد يسعى الباحث إلى الكشف عن الحقيقة ولكنه في الوقت عينه لابد دوما من مزاولته لنفوذ معين من شأنه أن يؤثر في موضوعية أحكامه. وإذا كان لتأثير الميول والمصالح الاجتماعية للباحث مثل هذا النفوذ في محتوى النظرية العلمية فما يدعو إلى الريبة إمكان التحكم في التحيز وتجنبه (قنصوة. صلاح 2007: ص63).

ونظرا لذلك تنشأ تساؤلات عدة حول مناهج البحث وأدواته وقياس مدى انحيازها وموضوعيتها، فثمة إحساس غامر لدى الكثير من العلماء العرب بأن المناهج التي يتم استخدامها في الوقت الحاضر في العلوم العربية الإنسانية ليست محايدة تماما، بل يرون أنها تعبر عن مجموعة من القيم التي تحدد مجال الرؤية ومسار البحث

واصطلاح **(التحيز)** "يشير إلى وجود مجموعة من القيم الكامنة المستترة في النماذج والوسائل والمناهج البحثية التي توجه الباحث دون أن يشعر بها وإن شعر بها وجدها لصيقة الصلة بالمنهج لدرجة يصعب معه التخلص منها". (المسيري، 1996: ص6)

وعلى مستوى المناهج والأدوات التي تقوم عليها تلك الدراسات (العلوم الإنسانية) فإنها لا تتصف بصفة العموم، كما أنها ليست مطلقة عن السياق بحيث تكون في ذاتها محايدة تؤتى نتائجها الحتمية حيثما استخدمت بمعزل عن ميول الباحث واتجاهاته الفكرية والأيديولوجية، وبمنأى عن السياق الحضارى وإشكاليات الراهنية الظرفية.

وإذا كان مفهوم التحيز في العلوم الاجتماعية يشير إلى أن مناهج وأدوات هذه العلوم ليست مطلقة أو عامة، فإن النتائج التي يتم التوصل إليها باستخدام تلك المناهج والأدوات ليست صالحة لكل زمان ومكان ولكنها متحيزة من حيث الصلاحية في إطار اجتماعى وسياق زمنى محددين (غانم. إبراهيم البيومي ، ص277)

ويتخذ النزاع في الفلسفة حول مشكلة **(التحيز والموضوعية)** في العلوم الإنسانية أشكالا وصورا متعددة قد لا يصرح فيها بلفظ الموضوعية، فقد تتخذ مثلا صورة السؤال عن علاقة التداخل والتخارج بين المسألة السيكولوجية والاجتماعية (التي تتعلق بما يثير اهتمام الباحث وطريقة اكتساب معرفته) من جهة وبين المسألة المنطقية (الخاصة بصحة معرفته) من جهة أخرى. (قنصوة. صلاح،2007،ص73).

وعلى حد تعبير (عبدالفتاح ، سيف الدين 1997، ص292) فإن التحيز له متعلقاته على مستويات ثقافية ومعرفية محورية تشكل البنية الإدراكية وتتحكم في النتائج فهو يرى أن: التحيز منه ما يتعلق بالأمر المعنوى، ومنه ما يتعلق بالمادى ؛ وهو يتعلق بالعوالم الأربعة (عالم الأفكار – عالم الأشياء – عالم الأشخاص – عالم الأحداث) ويتعلق بكل عناصر السلوك (الاتجاه والرأى والحكم والموقف والسلوك الفعلى). ويتفرع عن عملية التحيز الكلية التحيز البحثى والأكاديمى. وقد يعود التحيز إلى موضوع البحث ذاته أو الباحث وفق مسلماته وقابلياته، كما يعود إلى كيفية البحث ومناهجه.

ضرورة دراسة التحيزات المعرفية ورصدها

تعكس حقيقة التحيزات العقلية في أى نص ثقافى بمعاييره القيمية وتمثلاته الأيديولوجية مدى أهمية دراسة التحيزات المعرفية للانتباه إلى زاوية الميل عن الحيادية المجردة، ولا يعنى ذلك من الأساس إمكانية رصد الوقائع العلمية وموضعتها في إطار محدد مجرد بمنأى عن تنوع الثقافات والفلسفات، فهذا ما لم تعثر الدراسات على وجوده، وإنما يرجع قيمة معرفة زاوية الميل عن الحيادية إلى اليقظة لكل ما ينسب نفسه إلى الموضوعية مبتعدا ببحثه ونتائجه وأفكاره عما يصمها بالخصوصية في محاولة لترويجها مدرجة في إطار الموضوعية مما ليس لها بحق.

وما يؤكد ذلك التحيز الذى ندعو إلى مراقبته ورصده هو أن العقل مع قصوره إلا انه فعال، ولا ينظر إلى الواقع فيسجله بموضوعية متلقية بلهاء، وإنما يواجه الواقع المتنوع المركب فيبقى ويستبعد ويجرد ويفكك ويركب ويصحح ويضخم ويهمش، ويصوغ نماذج معرفية يدرك العالم من خلالها ولذا فهو يحقق قدرا من الاستقلال لإنسان عن القوانين الطبيعية

وهذا يعنى إمكانية تفاوت الإدراك عمقا وتسطيحا واختلافا من شخص لآخر إنما هو باختلاف التجربه النفسيه والحضارية للمدرك، إذ أن أداة الإدراك ليست أداة سلبية أو بسيطة، وإنما هي أداة إنسانية مركبة فعالة وما بين تركيبة العالم وفاعلية العقل البشرى يصبح التحيز حتما (المسيري. إشكاية،1996،ص71).

ولما كان لكل نص ثقافى القدرة على تشكيل العقل الذى ينطلق من فلسفته وقيمه وأيديولوجيته، فإنه يلزم بالضرورة وجوب الكشف عن هذه التوجهات الكامنة والمعايير المخبوءة لنميز علاقة المقدمات بالنتائج التي لا تستقيم إلا بفهم تلك الأنماط المتحيزة.

ولإمكانية رصد التحيز داخل الخصوصية الثقافية علينا أن نفهم وبدقة وأن نتوصل بقين إلى ما تحويه الدراسات والفلسفات والقيم التي تغزونا باسم الواقعية والموضوعية من تحيزات تمنع من صلاحيتها لغير بيئتها ونسبتها الزمانية والمكانية وراهنية سياقها الحضارى، وذلك حتى لا نقع في شرك التبعية المهيضة وحتى لاتعصف بنا رياح التنميط لحساب نص ثقافى يحذف مقولات ما سواه.

- **القيم الكامنة في النماذج الغربية والاستعارات التصورية المتحيزة**

القيمة عبارة عن حكم عقلى أو انفعالى على أشياء مادية أو معنوية يوجه اختياراتنا بين بدائل السلوك في المواقف المختلفة، ولا ينفك أي نص ثقافى عن قيم يعكسها من خلال تفاصيله. (مقبول. إدريس، 2010).

إننا لا نستطيع بحال فهم الواقع ولا ندركه إلا من خلال ثقافة تمثل قيما تتفاعل مع هذا الواقع الذى يصبح الوعي به مدركا في إطار هذه المعطى الثقافي القيمى، وتعمل تلك القيم كمحدد لمدركات الوعى فى الوجود، ولا تقتصر القيم في أى نص ثقافى على مجال دون آخر في إعطاء الدلالة وضبط المضامين.

والحقيقة أن القيمة من جهة دلالتها على العلوم الإنسانية لا تستنفد دلالتها في محتوى دون آخر، لأنها إطار أشمل وأعم ينصرف إلى ما ينبغي أن يكون غايات بالنسبة للفرد أو الجماعة أو البشرية بأسرها ويتضمن الاختيار بين مراتب متفاضلة ويحدد العلاقة بين الوسائل والغايات، فهذا الإطار الصورى للقيمة الذى يسمح باحتواء كل ضروب الفاعلية الإنسانية، وهو بعبارة أخرى أسلوب وجود الإنسان وطابع حياته فكرا وسلوكا مهما اختلف مضمون خبراته العلمية والفلسفية والخلقية والجمالية وغيرها. لذلك تتسلل القيمة إلى العلم عبر مستويات كثيرة (قنصوه. صلاح،368:2007).

ودعوى غياب التقويمات في المدرك البحثى على مستوى الانتباه لما يثيره الفكر من قضايا وما يقع عليه الباحث من اختيارات فضلا عما يؤثر في منهجية التناول وأدواته ونتائجة إنما هي دعوى منقوضة باعتراف جملة المهتمين بدراسة وقياس التحيز والحيدة القيمية، وكما ستوضح تلك الورقات فإن القيم الخاصة بالباحث وبسياقه الثقافي لا تغيب عن كافة مستويات الدراسات في العلوم الإنسانية.

غير أن وجودها كامن مستتر في طيات الأدوات والمناهج، وقد تبلغ درجة خفائها عدم إدراك الباحث ذاته بدورها في تحديد مقارباته وتشكيل توجهاته وبلورة قناعاته. ومن ثم يتجلى التحيز بفعل تلك التقويمات في تناول الوقائع العلمية بما يجعل التغاير في التناول والنتائج حتميا بتعدد المقاربات مختلفة السياق والثقافة.

علماً بأن الإناطة بالقيم هي الفارق الذى يميز العلوم الإنسانية (الثقافية) عن العلوم الطبيعية، ثم إن الاهتمام الذى يحدد لباحث موضوع الدراسة في العلوم الثقافية باعتبارها العلوم التي تحلل ظواهر الحياة على أساس من دلالتها وأهميتها الثقافية. فإن تلك الدلالة والأهمية لا يمكن فهمها على أساس من نسق القوانين التحليلة مهما كان انقانه مادامت الدلالات الثقافية تفترض مسبقا توجها قيميا نحو هذه الحوادث. "إذن مقهوم الثقافة مفهوم قيمى ويصبح الواقع ثقافة بالنسبة لنا بقدر ما نقربه وننسبه إلى أفكار قيمية". (قنصوه، 185:2007).

النسق التصورى للاستعارات المعرفية

لعل ما يثير الانتباه تلك الدلالة اللفظية لكلمة (استعارات) التي هي من مصطلحات علم البلاغة إلا أنها تؤدى دورا في السياق البحثى لدراسة التحيزات اقرب ما يكون لمدلولها البلاغى في حقلها اللغوي، إذا تؤدى الاستعارات التصورية الذهنية دورا وظيفيا محددا للتوجهات الفكرية والتناولات البحثية على وجه يلحق العديد من المعانى بالوقائع العلمية ويشكل الرؤى بحيث يتلاشى تجريد التناول في طى ما توحيه تلك الاستعارات من بواعث وميول.

ولعنلا ندرك علاقة الاستعارات بالتحيز من جهة المعانى، فيزعم مدعو الموضوعية ان الأشياء والوقائع والمواقف تعطى المعنى بذاتها، وهذا يمكن إدراكه باتباع منهجية محددة بحث لا يتخلف أحد اتبع المنهج بصرامة عن الحصول على نفس المعنى، بينما نظرية الاستعارات ترى أن الأنساق التصورية الاستعارية لا تتلقى المعانى بل تساهم في رسمها بحيث يصبح المعطى النهائي للمعنى تمثلى ارتسامى وليس حياديا تجريديا، وهذا ينفى الموضوعية ويثبت التحيز بحسب الذات والبعد الاجتماعي.

وهذه الاستعارات كامنة في المنهج والنماذج ولا تظهرإلا من خلال نتائجها التي لا تستقيم في ميزان النقد إلا بتقديرها، وكثير من هذه الاستعارات المعرفية الكامنة تأتى جاهزة من الغرب ولا تتسم بالبراءة أو الحياد. "وهى تسلب الباحث كثيرا من حريته وتحد من حركته ومجال رؤيته ذلك لأنها ليست متحيزة بصورة ظاهرة وإنما هي متحيزة بشكل كامن ومستترة " . (المسيري، 1998: 6).

ويفهم التحيزالاستعارى إذا ما قابلنا بين (الوجود في الأعيان) و (الوجود في الأذهان) وما يستتبع ذلك بالضرورة من (الوجود في الأفهام) حيث يتدخل النسق التصورى الاستعارى الذهنى في نقل صورة الأعيان (الواقع) إلى الذهن من خلال استعارات تصورية وظيفتها في الأساس الإدراك المتحيز نحو رؤى ثقافية وقيمية وأحكام مسبقة مخصوصة، وهذا ما ينافى الموضوعية.

وإذا كان النسق التصورى ذو طبيعة استعارية فإنه يسير تفكيرنا وسلوكنا من خلال هذا الاستعارات. ولهذا فإن نسقنا التصورى الاستعاري يلعب دورا مركزيا في تحديد حقائقنا اليومية، إذن نحن في توجهاتنا ومواقفنا نكون متأثرين بصورة وثيقة بالاستعارة، وليس من اليسير إدراك تلك الاستعارات التي تسيرنا في كافة تفاصيل حياتنا. انظر: (لايكوف، جونسن 2009، 22).

فنحن ندرك الوقت مالا ونكوّن نسق دلالى من خلال (بنية اعتبارية) Aspctual Astructure تصوغ الوقت مالا باستعمال كافة مفردات المال لإدراك معانى الوقت كالاستثمار والادخار والانفاق والإضاعة وعائد المنفعة وغير ذلك من التدوال المتعارف عليه، إلا أن ما يعنينا ان تلك الاستعارات التي نتحدث بها عن شيء بألفاظ شيء آخر تترك في أذهاننا وأفهامنا الكثير من المعانى الخارجة عن موضوعية الأمر الذى نتناوله وهذا هو فحوى المقصود من النسق التصورى الاستعارى.

وعلى سبيل التوضيح " فإننا إذا تحدثنا عن التقدم نكون قد تبنينا استعارة تشبه الحركة التاريخية بالخط المستقيم الذى يؤدى إلى نقطة.، وتخلينا عن الأشكال الدائرية، كما أننا نكون قد أخذنا بفكرة التراكم الكمية، وأصدرنا حكما قيميا مسبقا على القديم والجديد". (المسيري.، 1998،ص6).

أو اعتبار الجدال معركة فنتكلم عن الأول بألفاظ الثانى من خلال (بنية اعتبارية) من شأنها إخراج الجدال من حيزه الحوارى المجرد إلى معان وتصورات يتبعها اتجاهات وسلوكيات متأثرة بتلك الاستعارة الذهنية.

هذا ليس سوى تقريب ذهنى لطبيعة الاستعارات الكامنة في المفاهيم والقيم، إلا ان ما يحويه ذهن الباحث من تلك الاستعارات إنما هو بالضرورة ما يجعله يعبر بلفظ دون أخر، وما يمايز به أدواته ومناهجه في تراتبية جبرية .

نستطيع أن نقول بأن الاستعارات هي تلك الصور الذهنية التي لا يتم التناول بعيدا عن إسهاماتها، فتؤثر في إخفاء ما يجب إخفاؤه، وتظهر ما يستحق الظهور ليس بمبدأ الواقعية الموضوعية بل بدوافع ذاتية متحيزة للثقافات والأيديولوجيات.

وليس هذا القدر من التحكم والتوجيه البحثى المتحيز للباحث الناتج عن تلك الاستعارات يوازيه قدر مماثل بالوعى بكيفية وبآلية تلك التأثيرات . فغالبا ما يتم ذلك الانقياد لتلك االستعارات التصورية دون وعى بأى مساهمة لها في بلورة الفكر او نتائج الدراسة. إنه بذلك يكون تحيزا لاوعياً يستبد بالباحث وبطبيعة التفكير دون وعى بتحيز الاستعارات وأثرها على نطاق الحيدة والموضوعية.

- **هيمنة النموذج المعرفى الغربى ومآلات التحيز لقيمه المادية.**

إن الحضارة الأوربية قد فرضت نفسها منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم على العلم. وقد تبنت شعوب الأرض مكرهة أو مختارة بتعديلات طفيفة أو بغيرها " نموذج أوربا الكلى " ونماذجها الجزئية أو جلها ولذلك سادت مفاهيمها ونظرياتها المختلفة. وفى مقدمة ذلك نظرياتها في العلم والمعرفة والمناهج العلمية والتفسيرات العلمية في السياسة والاقتصاد وغيرها، وهيمنت على سائر الرؤى الأخرى وهمشتها وأذابتها أو أخرجتها من حلبة المنافسة، فصار العلم ما يراه ذلك النموذج الأوربي علما والمنهج ما يراه النموذج منهجا، وما خرج عن ذلك فيمكن أن يوصف بأى شيء، فيمكن أن يعتبر خرافة أو شيئا ناقصا، وظل الأمر يتطور حتى تم فرض تعريف العلم بأنه كل معلوم خضعللحس والتجربة.وتبنت اليونسكو هذا التعريف باعتباره تعريفا وحيدا للعلم. (العلواني، 1996).

وبهذا حققت الحضارة الاوربية في طور حداثتها وبأساليبها وأدواتها الساحقة القدرة على أن تتبوأ لدى شعوب العالم مكانة تجعلها سدنة محراب العلم وحارس قيم الموضوعية، وأصبح ينظر لما سواها نظرة الريبة والتوجس من محتواه على اعتبار أن العلم والموضوعية لا يمتلكهما سوى النموذج المعرفى الحداثى الغربى.

وبالتالي فإن أهمية كشف نسبية هذا النموذج وتحيزاته يعنى أول ما يعنى القدرة على الانفلات من قيوده والتحرر من قيمه لصالح القيم الأصيلة التي تمثل خصوصية الهوية والثقافة.

وكان من البدهى والحال كذلك من هيمنة هذا النموذج الحداثى أن يظن كثيرون بأن فعل الإبداع والتفلسف محصور في مجرد استيراد تلك النظريات بامتداداتها الحاصلة والموروثة عن الأفلاطونية.

لذلك كان لزاما أن نذكر بأن:

- أن هذه النماذج الغربية حتى في أرضها ودوافعها التي نشأت فيه لم يكن لها إيجابياتها في كافة المجالات، ربما أدت إلى نتائج على مستوى السياسة والاقتصاد إيجابية، إلا أنها دمرت جوانب أخرى من حياة شعوبها.
- وفوق ذلك هي ليست متوافقه مع غير بيئتها، فلا جدوى منها في غير واقعها الذى يمثل غالبية شعوب الأرض، فهى ليست قادرة على التعامل الإيجابى، بل تؤدى – نظرا لمغايرتها النيوية المعرفية – إلى تدمير النماذج الحضارية والواقع التاريخى لتلك الشعوب.

وفى هذا الإطار بالإمكان – على سبيل التدليل – الإشارة إلى النظرية الاجتماعية الغربية وما تقوم عليه من مبادئ وما تمثله بمقولاتها أنها بلغت مع ثقافتنا حد القطيعة الأبستمولوجية، وأما رواجها فليس ذلك راجعا لما حازته من علمية او موضوعية بل ما هيمنت به من وسائل نشرها وقهر الآخرين وإخضاعهم بطرق شتى لمحتواها.

وتقوم النظرية الاجتماعية المعاصرة على مبادئ وقواعد تنبع من الإطار المعرفى الغربى. وهى المبادئ والقواعد التي نادرا ما تخضع للنقد والمراجعة مما يجعل هذه الناظرية قاصرة على الخبرة التاريخية والتقاليد الأكاديمية البحثية لجماعة معينة برغم ادعائها عالميتها وصلاحيتها لتفسير المظاهر الإنسانية والاجتماعية.

"ويتسم النموذج السائد في النظرية الاجتماعية المعاصرة بسمتين رئيسيتين:

1. المنطقية الوضعية: حيث تستبعد الوحى كمصدر للمعرفة.
2. العلمية الأمبريقية: حيث تستبعد القيم ويصبح الواقع مجال بحث ومرجعية فى آن واحد

وقد أدى ذلك إلى نفى صفة العلمية عن أي معرفة تستند للوحى أو تقوم بتقويم الوقع في ضوء مثالية معينة، وسيادة النسبية".)عزت. هبة رؤوف، 1997 ص743).

التحيز للقيم المادية الغربية الكامنة

بات التحيز للقيم المادية أمرا لا يحتاج لإظهاره وتوضيح معالمه في المناهج والأدوات البحثية عناء يذكر، وذلك لما له من انتشار واسع ممتد عبر عقود طويلة هي تاريخ الهيمنة الاستعمارية الغربية التي استطاعت زعزعة قيمنا لصالح قيم مادية تنتمى لنموذج معرفى وضعى ينفى أي علاقة سببية غير تجريبية لا تخضع للقياس والمشاهدة، باعتبار أن ما هو موجود لابد وأن يظهر وما ليس بظاهر فليس موجودا .

ويعد المسيري من أبرز الذين اسهموا في نقد مسلمات النموذج المادى الغربى، فرصد أهم تجليات الوضعية المادية بنماذجها المعرفية وقيمها الكامنة في حياتنا ودراستنا ومجمل أنشطتنا، وأظهر مدى التحيز لتلك الوضعية المادية، وكشف عن حقيقتها وما تمثله من واحدية مادية ترفض الماورائيات ولا تؤمن بغير المادة في كل مظاهرها وتعلل الوجود برمته في شكل سببية صلبة يكشف عنها العلم شيئا فشيئا رافضة بصورة قطعية تفسير شيء من هذا الكون المادى بعلة من خارجه، وقاضية على أي ثنائية تكون المادة طرف فيها، فلا يوجد غير المادة التي ينسب إليها الإنسان وهو مجرد صورة من صورها.

ولذا فحاجتنا لفهم التحيزات المادية في أطرنا المرجعية ونماذجنا المعرفية تقودنا نحو دراسة رؤية المسيرى لهذا النموذج المتغلغل في وجودنا الحضارى الراهن.

تشكل الفلسفة المادية – كما يبين (المسيري ، 2002 (أ) ص7). البنية الفكرية التحتية أو النموذج المعرفى الكامن للعديد من الفلسفات الحديثة: الماركسية والبرجماتية والداروينية. كما أنها تشكل الإطار المرجعى الكامن لرؤيتنا للتاريخ والتقدم والعلاقات الدولية، بل وأحيانا لأنفسنا. وقد ارتبطت الفلسفة المادية في عقول الكثيرين بالعقلانية والتقدم والتسامح إلى آخره. وأعتقد أنه قد حان الوقت لفتح باب الاجتهاد بخصوص هذه الفلسفة، نظرا لأهميتها وهيكنتها على بعض أعضاء النخب الثقافية والفكرية.

مآلات التحيز للفلسفة المادية الغربية

لا ريب أن دراسة الفلسفة المادية للوقوف على نماذجها الكامنة في شتى فروع العلم في مجتمعنا تعكس المنهجية النقدية التي تستخدم النموذج المعرفى الغربى كوحدة تحليل للوقوف على التحيز لهذا النموذج ضد ذاتنا الحضارية وهويتنا.

يقودنا الكشف عن مآلات التحيز للفلسفة المادية الوضعية نحو دراسة هذا النموذج من جهة مفهوم العقل، حيث يمثل هذا المفهوم نقطة ارتكاز لكافة محاور تلك الفلسفة، وبه تكتسب في أذهان المتحيزين لها صفة العقلانية والموضوعية دونما حق. حيث يعمم مفهوم العقل بمعناه الغربى ووظائفه وحدوده باعتباره العقل الكامل، فيصبح ما سواه لا عقل او عقل بيولوجى أنعامى. وهذا الإدراك المغلوط يسارع في خطى التحيز لهذا النموذج المادي وتسويقه لا باعتباره تحيزا بل بترويجه علما يقينيا وموضوعية علمية ويجعل من تمثالاتهنضجا فكريا ورشدا حضاريا.

ويتوجه الانتقاد (للعقل المادى) باعتباره المنتج للمعرفة الغربية، لكونه عقلا ماديا وضعيا متحيز في إطار أصلين هما (المادة والمنفعة) فيسعى للإنتاج والكثرة ليحقق اللذة دون أي قواعد أخلاقية روحية لعدم إيمان هذا العقل بالغيب.

وهذا العقل المادي الذى يقود البشرية نحو الانفصال عن الله والروح والانغماس الكلي في المادة هو ما يبلور أهم مقولاته: " أنه لا يوجد في العقل شيء لا يوجد له أصل في الواقع المادي " (المسيري. 2002، ص81). ولما كان هذا العقل متحيزا أسيرا في نطاق المحسوس عجز كلية عن إنتاج أي قيمة روحية، وعن التطلع خارج إطاره.

والقرأن الكريم يعبر عن تلك الأهداف للوجود المادى للإنسان الذى لا يعرف غير اللذة والمنفعة بقول عز من قائل **{إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ }** سورة محمد الآية[12]

ويقول تعالى **{ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ }** سورة الحجر الآية [3]

إن هذه الفلسفة لم تعد ترى غير المادة وطبقت قوانينها على الإنسان وردته في كل مضامينه إليها، فأصبحت فلسفة واحدية لا ثنائية فيها (للإنسانى الروحى – والمادى الطبيعى) اختزالية تختزل الإنسان في قوانين المادة، وأنكرت أن للإنسان احتياجات تتجاوز المادة ولا يعبر عنها ماديا أو تفسر في بُعد نفعى، بل يعبر عنها جماليا وأخلاقيا ودينيا.

وقد عمل كثير من المفكرين على نقد الفلسفة المنبثقة عن العقل المادي باعتبارها فلسفة واحدية مادية، ففككوا بنيتها المعرفية القائمة على البعدين المادي والدروينى في الإنتاج والتفسير وسعوا لتقويض هيمنتها

ومواجهة المقلدين لها الذين عملوا على نشرها وتبنيها والتشدق بها ومصادمة حق المخالفين وإخافتهم وإرهابهم بمفاهيمها وأدواتها.

وعبر (ألان تورين) – وهو من أبرز مهاجمي الحداثة الغربية – عن المآلات الكارثية للنموذج المعرفي المادى فرأى أنه في الغرب تم الاستغناء عن فكرة الذات وعن فكرة الله، فلم يعد المجتمع والتاريخ والحياة الفردية تخضع لكائن أعلى ينبغي أن يكون له الخضوع، بل الفرد أصبح لا يخضع لغير قوانين الطبيعة التي حلت محل الإله. (تورين. ألان، 1994، ص155).

وإذا كان العقل – كما سلف – هو أهم مرتكزات هذا النموذج المعرفي المادى فقد انشغلت بعض الدراسات بكشف سوءات هذا العقل فتساءلت " ما يكون ؟ " فوجدت أن العقل مفهوم غامض متعدد الاستعمالات بمضامين متباينه، وما يحدد مفهومه هو: إطاره المرجعى الذى يوجه مساره ويؤطر مجاله، يؤكد ذلك أن العقل عند الماديين لا علاقة له بمفهوم العقل عند المثاليين لا من حيث وظائفه ولا من حيث طبيعته وماهيته. انظر:(المسيري. 2002 (أ)، ص80).

ولقد هوّن (المسيري، 2002 (أ)، ص85) "من قدرات العقل المادي الخارقة باعتباره جزءا من الطبيعة معاديا للتاريخ وعنصريا غير قادر على إدراك الكليات والقداسة والأسرار، وهو. عقل امبرياليا وينكر الإنسانية المشتركة وعقل تافه سطحي فلا يمكنه أن يسأل أيا من الأسئلة الكلية وا لنهائية الكبرى " ما الإنسان ؟ وما مصيره في الكون" ؟.

إن هذا العقل الغربى –عقل أداتى فارغ من معطيات القيمة ومرشدات المثل – منحيز تحيزا عقلانيا للمحسوس والمحدود والكمى على حساب غير المحسوس واللامحدود والكيفى، ولهذا كانت الظواهر والموضوعات المركبة واللامحدودة والكيفية تتعرض على الدوام في ظل النماذج التحليلية العقلية الواحدية إلى النبذ. إنه تجاهل يخفى وراءه رغبة في التفسير العقلانى المادى الذى يدخل كل شيء في شبكة السببية الصلبة والاستمرارية المطلقة.

ومآلات هذا العقل وما ينتجه جد خطيرة، فنحن ندرك بخصوصية الثقافة أن حقيقة التحضر راجعة لا إلى مستويات التقدم المادى الذى تحرزه مدنية ما في ظرف تاريخى معين وإنما إلى درجة تلبسها بالأخلاق الإنسانية الرحمانية الداعية إلى قيام حقيقة الإنسان واستمراره باعتباره كائنا مخلوقا عمرانيا والمانعه من

مسخه أو سلخه أو نسخه وهى عمليات تشويه وتعذيب وإبادة على التوالي، ويسمى المسيرى هذا في تحليله بأنه (انفصال الدال عن المدلول). (مقبول. إدريس،2010).

ولم يكن بد والمادة طاغية من حيث التفسير والتعليل من أن يصبح الإنسان (إنسان الرأسمالية والماركسية والداروينية والفرويدية) ضائعا مهددا في انسانيته المختزلة في عدة أنماط مادية لا تتجاوز اللذة والمنفعة ولا تهتم بإنسانيته الروحية والأخلاقية إلى أن تم تجاوز الإنسان ذاته وإزاحته من المركز إلى الحافة لصبح جزء من مادية الكون لا يفارقها فى قوانينها المادية الصارمة، بحيث صار الإنسان دالا بلا مدلول، لا يميزإنسانيته شيء عن الحتمية المادية ذات الصيرورة السببية الجامدة. (انظر: المسيري، 2002 (ب)، ص 151).

وفى الأخير فالإنسان المادى الحداثى في النص الثقافي الغربى على حد توصييف (المسيرى) كائن مشدوه أمام إنجازاته المادية، زمنه مشغول مستعمر، متخم هو بالمعلومات التي تطلعه على كل شيء فيما عدا نفسه التي يجهلها، تمده العلوم الطبية والبيولوجية والوراثية بما يمكنه من التعرف على كيفية اشتغال آلياته الجسدية لكن لا خبرة له عن اتجاه رحلته في الحياة. (مقبول. إدريس، 2010).

ولنا أن نستشعر مخاطر مركزية هذا التصور المادى الذى تصاغ منه النماذج الكلية والجزئية وله نظرياته المعرفية التي لا تؤمن بغير الظواهر الخاضعة للقياس المعملى، وأطره التي لا تولى اى أهمية ولا تعطى كبير أو صغير معنى لما لا يستحيل إلى منفعة قائمة او مصلحة ماثلة أو لذة شاخصة، ففي هذا من نبذ قيم الوحى وردالتسليم بالغيب والاستنكاف عن الانقياد للخالق ما يجعل التحيز لهذه الفلسفة عن وعى أو لاوعى أو عن إدراك للنماذج والقيم اكامنه في المناهج أو عن غيره ما يؤول بخصوصيتنا الحضارية والثقافية إلى الذوبان والتلاشى، لا بفعل الموضوعية والعلمية بل بالهيمنة والتحكم بأدوات الطغيان ذات المظاهر المتعددة.

المحور الثاني: دعوى موضوعية النموذج المعرفي المادى الغربي

ما تعانيه ثقافتنا في مواجهة تحديات الثقافة الغربية الواردة ولربما نكون أكثر دقة إن قلنا الثقافة الغازية – بما يحمله الغزو الثقافي من استعارات التدمير والانقضاض والمباغتة والانهزام والتبعية – مانعانية راجع إلى إدعاء تلك الثقافة صفتى الموضوعية والعلمية، وهى بدعواها تصادر حق الاعتراض عليها في البيئات

المغايرة وتسلب سلاح الخصوصية الثقافية وفرادة التجربة الحضارية لكل أمة باعتبار أنها – الثقافة الغربية – موضوعية منتمية إلى العلم، فيكون بذلك المعترض عليها متهم بالانحياز وغير موضوعي وموقفه معادٍ للعلم.

إن "فكرة (العلمية والموضوعية) قد شاعتا وسادتا في عالم المعرفة والعلم كصفتين أساسيتين وصف بهما العلم الغربى المعاصر وذلك لتسويغ عالميته ونفى صفة الخصوصية عنه بقطع النظر عن نموذجه الكلى ونماذجه الجزئية وبذلك فرض هيمنته على العالم ". (العلواني. طا جابر، 1998).

يقول (لايكوف، جونسن. 2009، ص 182): "في الثقافة الغربية تطغى النزعة الموضوعية فهى تدعى أنها تتحكم على الأقل اسميا في الميادين العلمية والقانون والحكومة والصحافة وقواعد السلوك والتجارة والاقتصاد والثقافةً إلا أن تلك الموضوعية أسطورة ".

ولذا فمن الضرورى أن نقترب من مفهوم الموضوعية، وما إذا كان بمقدورنا ونحن تحفنا النسبية وتلاحقنا الذاتية وتحوطنا خصوصية الثقافة بنماذجها القيمية، فهل بإمكاننا كمجتمع بشرى ينتمى برمته لتلك الأوصاف أن ننتج معرفة موضوعية مجردة عن الثقافة والقيم والايديولوجيا ؟

الموضوعية وزعم تَمثُّلها في النموذج المعرفى الغربى

(الموضوعية) تشير إلى أي موضوع محدد يقع في الخارج لا يتأثر إدراكه – بما هو عليه من خصائص وحقائق – باختلاف زاوية النظر أو أداة التناول أو انتماءات الباحث الثقافية والقيمية، بمعنى أن علاقة الموضوع بكافة المتناولين له متساوية فلا يحدث اختلاف حول حقيقته . وبهذا تفترض الموضوعية أن هناك واقعا معينا موجودا في الخارج وأن البشر يستطيعون إدراك هذا الواقع كما هو، ونقل صورته إلى الذهن كما هي، ثم التعبير عنها، وأنهم يستطيعون أن يقدموا تلك الحقائق الواقعية العلمية كما هي دون التأثر بأهوائهم ومصالحهم، فلا يصيبها شيء يمكن أن يؤدى إلى مغايرة الواقع العلمى نتيجة نظرة ضيقه أو تحيز أيديولجى أوغيره.

وتنطلق الموضوعية من عدة مسلمات مفادها – على نحو مجمل – أن العالم مكون من أشياء والتي لها خصائصها المميزة المستقلة، و(الموضوعية) أن تطابق التصورات والمقولات تلك الخصائص، وبهذا نضمن

عدم الوقوع في التوهمات والتحيزات الشخصية والثقافية، وأن هذا ممكن عندما نتبع المنهج العلمي بإجراءاته الصارمة.

ومن منطلقات دعوى الموضوعية انه يمكن التعبير بدلالات لغوية دقيقة جبرية المقصد قطعية التصور لغة لا يدخلها أي استعارات – تناقض الموضوعية – يلج منها التحيز، بمعنى أنها مصطلحات منضبطة تشبه المعادلات الكيميائية والمسلمات الفيزيائية.

وعلى حد قول قنصوة (2007 ص75,74) : من الضرورى لأجل الموضوعية في العلوم الإنسانية بلوغ نموذج علمى يحظى باتفاق الباحثيين ويخضع لمراجعتهم وفقا لأساليب يشاركون في الاعتماد على سلامتها ويجمعون على صحة نتائجها، بحيث يبدأ الباحث حيث انتهى غيره. وهذا الاتفاق يعتمد بدوره على اتفاق واشتراك الياحثين في كل مقومات المشروع العلمى وشروطه بحيث تصيح القدرة على استخلاص النتائج عائدة على قدم المساواة بين الباحثين أيا كانوا مادموا ملتزمين بإجراء الخطوات نفسها التي يمكن أن يجريها غيرهم، وهذا هو ما نعنية بالموضوعية.

وقد سيطرت أسطورة النزعة الموضوعية على الثقافة الغربية وخصوصا في مجال الفلسفة، وقد شكل القول بإمكان ولوج البشر الصدق المطلق وغير المشروط بصدد العالم حجر الزاوية في التقليد الغربي، وقد أزهرت أسطورة الموضوعية في كل من التقليد (العقلانى) والتقليد التجريبى (الإمبريقى) اللذين لا يختلفان من هذه الناحية إلا في تفسيرهما لكيفية التوصل إلى الصدق المطلق (الموضوعية). فبالنسبة للعقلانيين تعد القدرة الفطرية في التفكير الوسيلة الوحيده التي تمكننا من معرفة الأشياء كما هي حقيقة، أما بالنسبة للتجريبيين فتأتى معرفتنا كلها من الإدراك الحسى (**لايكوف وآخرون**، 2009، ص189).

وهنا يعرض التساؤل – بعد أن حاولنا فهم دعوى موضوعية النموذج الغربي ووقفنا على دلالتها وتصورنا حقيقة هذه الدعوى – هل بالإمكان أن توجد هذه الموضوعية في العلوم الإنسانية فتتلاشى آثار الثقافات والايديولوجيات وتصبح البحوث في تناولها ونتائجها موضوعية ؟ بحيث يصل إليها أي باحث دون تفاوت في أي مستوى من مستوياتها بانضباط صارم ؟ وهل توجد هذه المناهج وتلك الأدوات الممتنعة المتأبية على التحيز ؟

في الورقات التالية نعرض التحيزات في النموذج الغربي التي تشتمل عليها دعوى الموضوعية، وأهم الآراء حول إمكانية قيامها من عدمه، والاقتراحات المعالجة لقضية التحيز.

تحيز النموذج المعرفى الغربي

يذكر(**العلواني**. طه جابر، 1996) في تصدير سلسلة المنهجية الإسلامية (9) قوله: ظل الاعتقاد بفكرة الموضوعية في الثقافة الغربية وما أنتجته من معارف سائدة حتى أطل عصر ما بعد الحداثة وظهرت الانتقادات لتلك الدعاوى وما اشتملت عليه من تحيزات تنفى عنه فكرة الموضوعية المحايدة. وتم الكشف عن العديد من التحيزات والاحتمالات والنسبية التي تهدم وتأتى على أصل دعوى الموضوعية.وعندما بدأ علماء المسلمين يكتشفون مدارس النقد الغربى في العلم والمعرفة والمنهج بدأت إرهاصات يقظة معرفية إسلامية. وفى دائرة هذه اليقظة المعرفية بدأ الكشف عن تحيزات العلم الغربي وبدأت تبرز تأثيرات " الأنثروبولوجيا "الغربية في العلم والمعرفة وبخاصة الاجتماعية والإنسانية لتكشف عن زيف ما عرف بالموضوعية. وهكذا كشف عصر ما بعد الحداثة من خلال مدارس النقد الغربية ذاتها أخطاء الكثير من مسلمات التي شيد عليها صرح إدعاء الموضوعية التي صدق العالم وخاصة العالم الإسلامي مروجيها على أنها حقيقة واقعية وموضوعية حيث أدت عمليات الكشف عن التحيزات العلمية والمنهجية على مستوى الفردى والجماعى إلى أنها أمر بعيد المنال فغاية ما يمكن الوصول إليه في هذا المجال هو نوع من الاستقامة العلمية من أن تتأتى لمن لا يربط بين العلم وامنهج والقيم العليا.

وهذا ما دعا الكثير من المعترضين على دعوى الموضوعية ان يفندوا تلك الأسطورة فعلى سبيل المثال في مجال الأنساق التصورية الاستعارية التي تحدث عنها كل من (لايكوف، جونسن) في كتابهما (الاستعارات التي نحيا بها) فإننا نجد تلك الدراسة تواجه دعوى الموضوعية الحادة للنموذج المعرفى الغربي وكشفت أنه لا شيء من الواقع يعطى معنى موضوعى لكافة البشر على نحو سواء وإنما الأنساق الثقافية تمثل مدركات ومستقبلات وتضفى على الواقع المعانى بحيث يسفر الواقع الواحد امام تنوع الأنساق التصورية الاستعارية العديد من المواقف الثقافية والتباينات الفكرية مما يجعل دعوى موضوعية ناتج نسق تصورى استعارى بعينه دعوى لا رصيد لها من اليقين. ولا يوجد من ناتج الاستعارات ما يحمل الصدق المطلق .

يقول (**لايكوف، جونسن** 2009، ص 162) متحدثا عن حتمية تنوع الثقافات والأفكار نظرا لتنوع الأنساق التصورية الاستعارية التي نفهم بها الوقائع وندرك بها الوجود: لا نؤمن بوجود صدق موضوعى (مطلق غير مشروط) – في مجال الأنساق التصورية الاستعارية – رغم أن التقليد الثقافي الغربى يقول بالعكس لمدة طويلة والصدق موجود رغم ذلك، إلا انه ليس من الضرورى ربطه بالطرح الموضوعى، ففكرة وجود صدق موضوعى مطلق ليست فكرة خاطئة فحسب بل إنها خطيرة على المستوى الاجتماعى والسياسي، فالصدق دائما نسبى بالنظر إلى نسق تصورى تم تحديد جزء كبير منه من خلال الاستعارة، وإن عددا كبيرا من استعاراتنا نشأ في ثقافتنا منذ تاريخ طويل، إلا أن عددا كثيرا آخر منها فرضه أصلا ممارسو السلطة من زعماء وسياسيين ودينيين وزعماء مجال الأعمال والتجارة والإعلان ووسائل الاتصال... إلى آخره.

أي أنه متى كانت أسطورة النزعة الموضوعية سائدة في الثقافة وكان الصدق دائما صدقا مطلقا نجح فارضو استعاراتهم على الثقافة في تحديد ما تروج له بمنحه صفة المطلق الموضوعي.

مدى موضوعية النموذج المعرفى الغربى

ادعى هذا النموذج الموضوعية بصورة لا تقبل المراجعة، بل وصل به الامر درجة استخدامها كعقيدة دينية لاهوتية تمنح صكوك الغفران وتصدر قرارات الحرمان وتصم من لم يسلك طريقها ويمالئ مقولاتها بالتحيز والبعد عن العلمية والموضوعية. وبعد الانتقادات التي وجهت له اهتزت الثقة بمقولاتها وظهرت مزاعم دعواها التي طرحت نفسها باعتبارها منطلق تجلى الحقائق الاجتماعية والإنسانية.

يقول العلواني (1996): لا تزال الموضوعية لدى آلكثرين من المسلمين– ممن تأثروا بدعوى موضوعية النموذج الغربي – فكرة علمية تسول لهم أن الحقيقة في الكون يمكن الإمساك بها والتعبير عنها بصورة كاملة من قبل الباحث الموضوعى إذا التزم بمجموعة من القواعد المنهجية التي ينبغي أن يتبعها الباحثون.

والتي تفترض أن الباحث شخص محايد لا هوية ولا ثقافة ولا عقيدة ولا أفكار مسبقة، بل هو مجرد مرآه تنعكس فيه حقائق الكون والوجود كانعكاس الأشياء في صفحة المرآه.

وقد تم توظيف هذه الفكرة توظيفا سياسيا واستعماريا وإيديولوجيا في غالب الأحيان إن لم يكن جميعها حيث خضع البحث العلمى لسيطرة الأقوياء سياسيا وماليا وإيديولوجيا وفى نفس الوقت قدم على أنه الحقيقة الموضوعية.

فتم استضعاف الضعفاء والتحكم فيهم واستنزاف الفقراء وتجريدهم من عناصر الدفاع ألذاتى بحجة أن هذه هي الحقيقة الموضوعية وليس غيرها، وأقنعت الشعوب الغربية بعدالة ما تفعله في أنظمتها في الأمم الأخرى بناء على ذلك.

وكذلك وظفت قضية الموضوعية توظيفا داخليا في سياق الطرح السياسى في العالم الإسلامي والمجتمعات المتخلفة أو المامية واعتبر المخالف في الرأي غير موضوعى. وسادت فكرة الإمساك بالحقائق وإمكانية التعبير عنها، واعتبرت الموضوعية تهمة دينية تخرج من خرج عنها من دين العلم.

وإذا ما أردنا الوقوف على مدى موضوعية أي نموذج ما فإنه لابد من إدراك دلالات (الموضوعية) المتنوعة. تلك الدلالات التي يفيدنا ونحن نتحقق من مدى النجاح في تفادى تحديات وجودها وصعوبة تحققها،

وفى هذا الإطار يشير (**قنصوة** 2007، ص 69-70). إلى وجوب التمييز عند دراسة الموضوعية في العلوم الإنسانية بين دلالات متفاوتة ومستويات متباينة. وفد ذكر عدة دلالات منها الأكسيولوجية (القيمية) التي بمقتضاها تعد الموضوعية تجردا لكل حكم من أحكام القيمة.

والدلالة الأبستمولوجية (المعرفية) وهى صلة الذات العارفة بالموضوع المعروف، فلم تكن معرفة الأشياء على ماهى عليه نهاية الإشكالية بل إن ذلك يثير إشكالية: هل لدينا ما نفرق به بين ما هو واقع وبين ما هو وعى عن الواقع؟

وفى نطاق الدلالة الأبستمولوجية (المعرفية) تتجلى ثنائية الواقعية والمثالية، التجريبية والحدسية، الارتيابية والدجماطية.وهناك الدلالة السيكولوجية بالنظر للموضوعية على أنها تمحيص لأثر العوامل النفسانية في تشكيل المعرفة.

وبالإشارة إلى ما سبق التنويه بشأنه عن النقد الذى وجّه إلى دعوى موضوعية النموذج المعرفى الغربى نجد أن النقد ما بعد الحداثوى في المدارس الغربية ذاتها قد فند تلك الدعوى، وهو نقد منهجى سعى إلى تفكيك المقولات الحداثوية الغربية وتحطيم أساطير (المركزية الغربية) في ادعاءاتها حول (إطلاقية المفاهيم) و (تعالى العقلانية)و (كونية الحقيقة) من وجهة النظر الحداثوية الغربية وصلوحيتها لتحديث كل شعوب الأرض مهما اختلفت لغاتهم وثقافاتهم وأديانهم.

وساهم النقد ما بعد الحداثوى في تحدي قيم الحداثة الغربية ذاته، فنفى عنها صفة الموضوعية الإطلاقية عن القيم الفكرية والثقافية الغربية، ونسّب مقولة الحقيقة المدعاه ونزع عن الحداثة أبعادها الكونية بعد أن أثبتت هذه الم اجعات المعرفيةأن هذه القيم والمفاهيم والمقاربات رؤى غربية مخصوصة صيغت وفق حاجات حضارية وأسس فلسفية غربية ولا. تنطبق أليا وحتميا على كل الثقافات والحضارات بدعوى الموضوعية العلمية بل لا بد من اعتماد مقولة (النسبية الثقافية). (**المنصوري**. المبروك الشيباني، 2014، ص 13,12).

الموضوعية في إطار الانحياز القيمي لدى " ميردال " .Merdal "

تناول (**ميردال**) **Myrdal** (1970 ، ص 51) كما أشار (**قنصوة**. 2007، ص373) إشكالية الموضوعية من خلال تأثير القيم الثقافية في تناول القضايا، ويستعمل لفظ التقويمات للدلالة على آلية انعكاس القيم (الذاتية أو الاجتماعية) في الرؤية والإدراكات والاستنتاجات.

فيذكر (**ميردال**) أن التحيزات في العلم الاجتماعى لا تنمحى ببساطة بمجرد " الالتزام بالوقائع " فالتقويمات أمر جوهرى في المشروع العلمى لا يمكن إلغائه. فالعيب الأساسى في العلم الاجتماعى لا ينشأ عن غياب الموضوعية بمعناها التقليدي أي الاستقلال عن كل التقويمات بل الأمر على الضد من هذا، فكل دراسة لمشكلة اجتماعية مهما تكن محدودة النطاق تعينها التقويمات والعلم الاجتماعى النزيه لم يوجد قط ولأسباب منطقية لن يوجد على الإطلاق.

وهكذا نقف على اهتمام (**ميردال**) **Myrdal** بالعلاقة بين التقويمات الاعتقادية والوقائع العلمية، ورأى أن الموضوعية لن تتحق أبدا في العلوم الإنسانية إذا حاولنا فصل العلم عن الوقائع العلمية وإنما بوصلها الواعى الذى لا محيص عته.

فهو يرى أن الأسس المنهجية للعلم الاجتماعي تقوم على أسس ميتافيزيقة وعلى موضوعية زائفة، والاعتقاد المضمر بوجود طائفة من المعارف العلمية المكتسبة بصورة مستقلة عن كافة التقويمات إنما هو ضرب من التجربة الساذجة.

فالوقائع لا تنتظم بنفسها في مفهومات ونظريات بمجرد مشاهدتها، فبدون إطار المفهومات والنظريات ليس ثمة وقائع بل هناك عماء فحسب ولا معدى عن وجود عنصر قبلى في كل عمل علمى، فالأسئلة لابد أن

توجه قبل أن تعطى الإجابات والأسئلة جميعا تعبيرات عن اهتماماتنا بالعالم ومصلحتنا فيه فهى قرارها تقويمات.(قنصوة. 2007، ص 370).

كما يطرح **(ميردال)** الحل بقضية التحيز ليس بتجنب التقويمات بل بمواجهتها حيث إنها – كما يقول – ماثلة في مشكلاتنا حتى لو ادعينا أننا نلفظها

ولحل هذه المعضلة يقدم **(ميردال)** **Myrdal** (A 1962، ص.1063 ، كما أشار (**قنصوة**. 2007، ص. 375) ما يسميه(بالمنحى) ومنهج كشف التحيزات لديه هو التصريح بالمقدمات القيمية في صدر البحث، وبذلك يمكن بلوغ استنتاجات عملية لائقة عن طريق الاستدلالات العقلية من المعطيات الوقائعية، والمقدمات القيمية معا. وليس ثمة خطأ بذاته فيما يتعلق بالمفهومات المشحونة بالقيمة إذا كانت معروفة ومحددة بجلاء بموجب مقدمات مقررةعلى نحو صريح. فحجب التقويمات هو الطريق المفتوحة للتحيز الذى لا ينشأ نتيجة لما ينطوى عليه من تقويمات بل نتيجة لإخفائها.

والمنحى: هو العمليات التي تدخلها القيمة في المفهومات والنماذج والنظريات "وعندما تظل مقدمات البحث القيمية غير مذكورة خفية مخبوءة وغامضة في معظمها فإن النتائج المستخلصة لابد أن تتضمن خللا منطقيا. فعندما نقارن النتئج بالمقدمات سنجد هناك خطأ في الاستخلاص أو عدم لزوم." (Myrdal. 1970، ص. 52). كما أشار قنصوة. (2007، ص. 374).

ويوضح (قنصوة، 2007، 377) تعليقا على إسهامات.**(ميردال)** أنه عندما يقوم الباحث انتقاء منظومة واحدة من المقدمات القيمية ويمنحها مكانة مفضلة من الوجهة الاستراتيجية في الدراسة على ان يكون الباحث واعيا – طالما قد صرح بمقدماته القيمية المنتقاة – بإمكان وجود منظومات أخرى من المقدمات القيمية ومدركا لطابع منحاه الأحادى الجانب.ومهما يكن من أمر فإن هذا المنحى أسمى وأفضل من المنحى التقليدي الساذج الذى يدس التقويمات تحت البساط، وبالتصريح بالمقدمات القيمية المستخدمة بالفعل يتحدد الاستدلال جليا واضحا. ويعتقد ميردال أن منحاه هذا يمثل تقدما حثيثا نحو أهداف الأمانة والوضوح والفعالية في البحث، وهى كلها خطوات تمضى في اتجاه الموضوعية بالمعنى الوحيد الذى يمكن أن تفهمه منها. ولا شك أن ميردال استطاع أن يضعنا أمام مشكلة القيمة في العلوم الإنسانية وجها لوجه بوعي وجلاء، والتصريح بالمقدمات القيمية هي دون شك أحد الشروط الأساسية لحل المشكلة ولكنه ليس الحل.

مقاربات لإشكالية الموضوعية

لعلنا قد بلغنا نقطة الاقتناع بصعوبة تحقق الموضوعية كإجراء بسيط لا يعوز تحقيقه سوى الوعى به والقصد إليه من غير أي عوائق مانعة أو معميات مضللة، إن بلوغ الموضوعية في أفضل التقديرات أمر بالغ الصعوبة يكاد يكون متعذرا ولكنها لدى الكثرة الغالبة مستحيلة الوجود ممتنعة التحقق.

وفى خضم الدراسات المتعاقبة على تلك الإشكالية التي هي أهم عقبات العلوم الإنسانية على مستوى الثقافة والفكر والقيم والفلسفات والأيديولوجيات فقد برزت عدة مقاربات لتفكيك هذه الإشكالية ووضع إجراءات علمية ممنهجة لتحقيقها، والتي إن تحققت بالفعل وسلم بذلك الكافة فإن وجه الحياة سيتغير، وسيصبح للوجود الحضارى البشرى معنى وقيام من نوع جديد.

وتأتى أهم هذه المقاربات لدى أبرز من تناولوا القضية وتعرضوا لإشكاليتها، فنعرض لإسهاماتهم ونبين مقترحاتهم:

الموضوعية عند " ماكس فيبر "

وبالنسبة لـ **(فيبر) M. Weber** فإنه ينكر على التحليل العلمى للثقافة – أو بمعنى أضيق – الظواهر الاجتماعية أن يكون موضوعيا على نحو مطلق.

إذ يقصد إلى أن التحليل " الموضوعى " للحوادث الثقافية القائم على رد الواقعة الثقافية إلى قوانين لا يصلح أن يكون معيارا في موضوعات العلوم الثقافية كما هي الحال في موضوعات العلوم الطبيعية. وأكد أن الأحداث لا تدرك من خلال قوانين تم تجريدها من مواقف فردية معينة، وأنها لا تقرر إلا وفق الأفكار والمفهومات القيمية.

ونكر " فيبر " ان التحليل العلمى للثقافة المردود إلى القوانين لا يصح، وعدم صحته معزو إلى أن الحوادث الثقافية أو النفسية أو العقلية أو الروحية لا تفسرها القوانين الاجتماعية بصورة نهائية وإن كانت أحد المفسرات. واكد فيبر أن الثقافة لا تدرك إلا وفق للدلالات والأفكار والمفهومات القيمية. فالثقافة قطاع محدود في نطاق لا محدودية العملية العالمية الخالية من المعنى وهى (الثقافة) ذلك القطاع الذى تهبه الكائنات البشرية المعنى والأهمية والدلالة. بتصرف واختصارانظر: (M. Weber، 1949، ص. 72 وما بعدها كما أشار قنصوة. 2007، 184).

ولقد كان **(ماكس فيبر)** **M. Weber** أبرز من بحث العلاقة الوثيقة بين القيم والعلوم الإنسانية، وقد ميز بين دور القيم كمحدد جوهرى لنوعية الظاهرة ومثيرا لاختيار الباحث لها ودراسته إياها وبين قيم الباحث الشخصية (الأيديولوجية) التي تحمله على الحكم المسبق على الظاهرة المدروسة. ودعا إلى التخلصمكن القيم والحيدة القيمية لتحقيق الموضوعية العلمية

إلا أننا نجد **(بارسونز)** **Parsons** يعلق على ما طمح إليه **(فيبر)** **M. Weber** بأنه لا يعدو كونه نصيحة لا إمكانية لإتيانها أو الوفاء التام بها، لأنه يرى أن إمكانية صياغة نسق واحد منظم بصورة نهائية حول المفهومات العامة عير ممكنة في العلوم الإنسانية مما يحيل دعوة **(فيبر)** للحيدة القيمية مجرد نصح وليست حلا بشأن العلاقة بين القيم والباحث. باختصار وتصرف انظر (Parasons. 1968، ص597) كما أشار (قنصوة. 2007، ص. 369).

الموضوعية وإشكالية التحيز الأيديولوجي

وفى تلك المحاولات التي تولى أهمية كبيرة لأثر الأيديولوجيا على البحث في العلوم الإنسانية تجد في شق منها موقفا يعلن يأسه من حلها ويدعوا إلى تعدد العلوم الاجتماعية بتعدد الأيديولوجيات التي يلتزم بها الباحثون." بينما من يرى أنه بالإمكان حل قضية الموضوعية من خلال الأيديولوجيا كما هو الأمر لدى " كارل مانهايم " فإننا نجدها محاولات هي إلى التبرير أقرب منها للتفسير".(قنصوة. 2007،350).

وإذا أردنا فهم طريقة **(ماركس)** **Marx** في بلوغ الموضوعية نجدها ممثلة في الوصول للطبقة العاملة حيث تنتهى الصراعات فإن ذلك " يوتوبيا " وهو في تصوره للموضوعية ينطلق رؤيته بأن إنتاج الأفكار والوعي بالنشاط المادي، ولكن التساؤل تكيف يستنفد الوعى الطبقى الأصيل أو الزائف كل مشكلات الموضوعية.

وحتى لا يصير الأمر في تلك الدائرة المفرغة بين طبقة تصارع لأجل إزاحة طبقة أخرى اضطرتها مصالحها أو أي عوامل أخرى إلى النأى عن الموضوعية لتتمكن الطبقة الصاعدة من بلوغ الحقيقة الموضوعية والتي هي بدورها ستصبح طبقة منهارة، لجأ **(ماركس)** إلى حل آخر متمثل في تلاشى الطبقات في الطبقة العاملة التي تمثل قمة الوجود الإنسانى العادل والتي عندها سينتهى الصراع . غير أن تصور حقيقة موضوعية جاهزة تنتظر من يبلغها أمر لا سند له في الواقع.

وعلى أية حال فإننا لا يمكننا أن نفترض وجود طائفة معينة من الناس تزعم لنفسها القدرة على التجرد والنزاهة دون سائر البشر، كما يتوجه سؤال آخر أكثر أهمية ما المانع ان يؤول أمر الطبقة الجديدة إلى الصيرورة الجدلية في الانهيار والتولد ؟ وعلى أي أساس أفترض أن الموضوعية هناك في مكان ما، وليس علينا إلا أن نزيل العقبات التي تفصل عنها ليتم بلوغها والتزامها على نحو يسير. (قنصوة. 2007، ص. 361).

التصريح بالتحيز القيمي

معلوم أن الوقائع لا تصبح مفاهيم ذات نسق دلالي من تلقاء ذاتها بمجرد النظر إليها، فما لم يتم إدراكها في إطار القيم والمفاهيم والنظريات المعرفية لن تكون أبدا ذات دلالة.

يقول (ميردال) .**Merdal**: (B 1962, p. 51) " بدون القيم لن يكون للباحث اهتمامات ولا معنى ولا إحساس بالإناطة أو بالدلالة المتعلقة بالمعطيات، وبالتالي لا يكون لدينا موضوع "

وهذه القيم التي يلتزم بها الباحثون في الظواهر الإنسانية لا تصبغ فحسب محتويات كشوفهم ونتائجهم، بل إنها لتتحكم كذلك في تقديرها للشواهد والبيانات التي يؤسسون عليها النتائج، وطالما اختلف الباحثون في التزاماتهم القيمية فإن ما يسمى " بالحياد القيمي " أمر يوشك أن يكون مستحيلا في العلوم الإنسانية، ولهذا ذهب بعض المفكرين إلى القول بأن من العبث أن نتوقع من العلوم الإنسانية أن تقدم إجماعا أو اتفاقا حول الوقائع وتفسيرها، وتدور مبررات تأثير أحكام القيمة في البحث العلمي للظواهر التي تتصل بانتقاء المشكلات، وتعيين محتويات النتائج المستخلصة وتمييز الوقائع وتحديدها، وتقدير أوزان الشواهد والأدلة. (Nagel, E., 1961, p. 485) كما أشار (قنصوة، 2007، ص. 61).

وعلى هذا الأساس تفاوتت اتجاهات الباحثين في مبلغ تشددهم أو تساهلهم في خفض تأثير قيم الباحث في تناوله لموضوعات بحثه. فمنهم من زعم إمكان عزلها عن البحث ومنهم من سلم أنه لا منجاة من تغلغلها، وبالتالي فلابد من الإقرار بقصور العلوم الإنسانية. وهناك من رأى أن الحل يكمن في التصريح بالالتزامات القيمية في مقدمة البحث وحسبنا أن نتبع متاها ونستخلص مترتباتها.(قنصوة، 2007، ص.71).

وهذا ما أيده اتجاه عريض من الباحثين في قضية إمكانية الموضوعية خاصة من رأى أنها ممتنعة في العلوم الإنسانية، فسعى إلى تخيف حدة التحيز وضبط آثاره من خلال الإقرار بالتقويمات .

تقول (مصطفي. نادية ،1998، ص.250) إن إخفاء التحيز هو الطريق المفتوح للتحيز، وليس وجود التقويم في حد ذاته ؛ ومن ثم فإن التصريح بالمقدمات القيمية هو الذى ييسر التحقق من التحيز حيث يصبح الباحث واعيا بمنظومته القيمية ومدركا لأبعادها واختلافها عن أبعاد المنظومات الأخرى بدلا من ألا يكشف عنها فيبدو وكأنه يعرض كل الحقيقة. وهذه المقدمات القيمية قد تكون كامنة في المسلك العلمى فهى التي تحث الباحث على اختيار مشكلته ووقائعه وأدواته المنهاجية، وقد تكون هي تقويمات الباحث الذاتية ووجهة نظره الخاصة إزاء موضوع دراسته.

ضمانة الفروض العلمية للموضوعية

دأبت المؤلفات في فلسفة العلوم الاجتماعية أو مناهج بحثها على ذكر إشكالية الموضوعية بمجرد الإشارة إلى محاذيرها والتنبيه إلى مخاطرها ولا تقدم حلا لها أو علاجا بقدر ما تقدم بعض النصائح والتوجيهات التي سرعان ما يزول أثرها.

ورأى **(قنصوة)** أن حل إشكالية التغلب على معطيات الفلسفة والأيديولوجيا والقيم في مواجهة الموضوعية للوصول إلى نقطة اتفاق تمثل الموضوعية العلمية ليس ذلك ممكنا إلى إذا استطعنا التمييز بين ما هو علمى عن ما هو غير علمى. إلا أن ذلك لا يتأتى بالتصريح أو الوعى بما هو علمى وما ليس كذلك بل بكف هذا الوعى تماما عن التدخل بالقضية العلمية، ولا يكون ذلك إلا من خلال صياغة قضايا العلوم الإنسانية على النحو الذى لا يجعل الحكم عليها قائما على مقاييس الفلسفة أو الأيديولوجيا أو القيم، وهذا يعنى أن تطوع قضايا العلوم الإنسانية لشروط (الفرض العلمى) الذى يقبل التحقق من صحته، وكل ما لا يقبل هذا التطويع يظل خارج العلم حتى يجد طريقه فيما بعد لهذا التطويع.

وهذا ليس نفيا للفلسفة أو الأيديولوجيا أو القيم بل ستكون مصادر الفروض حيث نستمد منها ما يمكن صياغته في فروض. وعلى هذا الأساس يمكن أن تنشأ لغة علمية مشتركه يتعامل بها المختلفون فلسفيا وأيديولوجيا ويمكن أن يتناقشوا فيما يخضعونه من فروض يغزلونها من مقترحاتهم الفلسفية أو منظوراتهم الأيديولوجية أو مدرجاتهم القيمية. (باختصار وتصرف انظر: قنصوة ، 2007 ، ص. 38).

ولا يعنى هذا أن ما تبقى للعلم لن يعدوا أن يكون نتائج هزيلة وتعميمات ضحلة لا غناء فيها، بل يعنى أن تظل الفلسفات والأيديولوجيات والقيم بالنسبة للعلوم الإنسانية رصيدا لا يمكن استثمارها إلا إذا تحول إلى عملة يتداولها العلماء فيما بينهم. إن مسألة تطويع الفلسفات والأيديولوجيات والقيم لشروط الفرض العلمى أشبه بممر لا يسمح إلا بعبور ما هو علمى محتجزا أمامه ما ينتمى إلى غير العلم.

المحورالثالث: التحير للنموذج الإسلامي حتمية ممانعة ومنهجية نقدية وتحديا ثقافيا

أولا ؛ التحيز للنموذج المعرفي الإسلامي مفهومه وحتميته.

مفهوم التحيز للثقافة الإسلامية

يجب ألا توحى الدعوة الصريحة إلى التحيز في إطار خصوصيتنا الثقافية الإسلامية بأن الهدف هو الانزواء فهذا ليس مرادا أو مطلبا على الإطلاق.، إنما ذلك لكون التحيز إلى الثقافات هو ما نراه في النظريات الغربية بنماذجها، حيث ثبت أنها مقولات تنتمى لقيم محددة وتنطلق من أسس معرفية خاصة وليست كونية أو موضوعية أو علمية، ومن هذا المنطلق نحن أولى بالانتماء لخصوصيتنا.

وهذا التحيز للثقافة الإسلامية لا يكون انزواء وجوديا ولا انطواءا فكريا، وإنما هو أصالة لا تمنع الاستفادة من ثمار العلم وثمار الحضارة المادية التي هي في النهاية جهد بشرى مشترك تتداوله الأمم والأجيال ولكنها – الأصالة – تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل. (مقبول. إدريس، 2010).

إذن ليس من الضرورى أن نعتقد أن التحيز ناجم عن عدواة أو سوء قصد، بل ينبغي أن نفهم أن التحيز طبيعة إنسانية لا يستطيع الباحث باعتباره إنسانا أن يتخلص منها مهما بلغت درجة انصافه، ولكنه إذا استقام يستطيع التقليل من آثارها أو تحييد تأثيرها ولو بدرجة ما. (العلواني. طه جابر، 1997).

ومعلوم أن الدراسات المشتغلة بظاهرة التحيز وإمكانية الموضوعية في العلوم الثقافية توصلت في الكثير من استنتاجاتها أنه لا إمكانية لتحقق الموضوعية بما هي عليه في العلوم الطبيعية المعملية، ولا سبيل للموضوعية إلا بإعلان التحيزات والالتزام بها، وما سوى ذلك يفتح الباب واسعا للمزيد من التحيز الكامن، ولذلك نجد في القرآن الكريم هذا واضحا بجلاء يقول الله تعالى **{ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ }** سورة يوسف [108]

هذه إعلان للمنهج والقيم التي ينطلق منها المسلم ويدور في فلكها، ومن ذلك قوله تعالى **{ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْٓاْ إِنَّـهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }** سورة هود [112] إنه التزام بمنهج معلوم وواضح. وهذا هو معنى التحيز للثقافة الإسلامية الذى هو في عمومه التزام بالدين أمرا ونهيا عقيدة وشريعة وأخلاقا.

حتمية التحيز ومقتضياتها

إذا اتفقنا على أن مدركات الإنسان لما حوله، بل حتى طريقة تفكيره واتجاهاته وتأملاته محدودة بحدود معتقداته وقناعاته وثوابته وتراكم خبراته، وما يعنيه كل ذلك من إطار معرفى بنماذجه الكلية والجزئية والتي لها تأثيرها في تحديد المواقف سلفا وتوجه نحو طريقة التناول وأسلوب المقاربة. إذا اتفقنا على ذلك فإننا أمام نتيجة حتمية لا دخل لنا في وجودها، بل لا نملك غير الإقرار بها وهى أن التحيز أمر حتمى في الطبيعة البشرية

وتتجلى تلك الحتمية في حاجة الإنسان لاستعارة أدوات الإدراك ومعايير الحكم ومناهج التناول، وبحسب استعاراته تكون مواقفه التي لا تخرج في غالبيتها عن امتدادات هذه الأدوات المؤثرة في التناول والإدراك اعتناء وطرحا، قبولا ورفضا. وتلك حقيقة التحيز التي تعنى ضرورة تبنى إطارا معرفيا بمنهجية ونماذجه لإمكانية رؤية العالم وإدراك حقائقه، ومن دون شك فإن تلك المدركات تمثل حقائق نسبية قياسا على تلك الأطر والنماذج التي انبثقت عنها.

والحقيقة أنه لا يمكن الحديث في العلوم الاجتماعية والإنسانية عن موضوعية وحيادية، إذ أن كل باحث يرى الحقائق من منظوره هو ومن واقع تجربته الشخصية ومن خلال خبراته الذاتية ورؤيته الكلية والنماذج المنبثقه عنها. ولقد كانت عملية التعامل مع الفكر الغربى ونقده تؤشر باستمرار إلى ضرورة بناء فقه النقد الابستمولوجى وفقه التحيز كثمرة من ثمرات النقد والحفريات المعرفية في الفكر الغربى . (العلواني، 1998).

والتحيزات ليست مقصورة على النتائج العملية والسياسية المستخلصة من البحث، بل هي راسخة الجذور إلى أعمق من ذلك. فهى كما وصفها **(ميردال)** النتائج السيئة الحظ للتقويمات المخبوءة التي يتسلل خفية إلى البحث في كل مراحله، ابتداء من تصميمه وتخطيطه حتى عرض نتائجه. التراث العلمى كله تتخلله أحكام القيمة رغم كل التوكيدات والعبارات الافتتاحية التي تنكر ذلك. (قنصوة، 2007، ص. 372).

يقول (مقبول. إدريس ، 2010)أن الإبداع في مجال الإنسانيات وخصوصا الفلسفة يحتاج إلى القدرة على التحيز في العالم اللغوى الحضارى الخاص بالمبدع ومحاولة اكتشافه في كل مرة بإعادة قراءته وتطويره من الداخل لا بإسقاط رؤى الآخرين عليه، وتحدث **(مالك بن نبى)** في كتابه شروط النهضة واعتبر أنه حينما يكون كلامنا أقل عن الاستعمار وأكثر عن القابلية للاستعمار نكون قد بدأنا السير في الطريق الصحيح وليست القابلية سوى ضعف الإحساس بواجب التحيز. وقد طرحت فكرة التحيز ونوقشت من جانب الكثيرين ومع ظهور الفكر القومى العربى عندما بدأ الحديث يتزايد عن الهوية والخصوصية الحضارية وضرورة الحفاظ عليها بشكل منهجى وشامل، ومما يجمع عليه عدد من الأصلاء في مضمار استئناف القول الفلسفي العربي اليوم، والداعين لقومة أو نهضة عربية إسلامية أنه لا حياة لنهضة بدون تحيز وزُيّال حضاري تفاديا للذوبان والتلاشي في المحاولات اليائسة لاستنساخ تجارب الآخرين ونماذجهم التي تستلزم منا في الواقع العملي إعدادا ثقافيا لدرء التنميط والتلبيس والتصدع. (المسيري، 1997، ص. 4)، (مقبول،إدريس،(2010).

ومهما يكن من أمر فإن التحيز الثقافى – كما يرى **(المسيري)** تستدعيه الفروقات التي تفرضها الواقعية الاستعارية فى تشكيل الفكر والمعتقد ورؤية العالم والفلسفة، فيتحصل من الإيمان بحتمية تقطيع الاستعارة للعالم في كل ثقافة وكل لغة لزوم المصير إلى فقه التحيز كوسيلة دفاعية لتحصين الذات والفكر ممن عاتيات التنميط وعاصفات التدجين. (مقبول، إدريس، 2010).

<u>التحيز ضد الذات</u>

كان الانخداع بدعوى علمية وموضوعية النموذج المعرفى الغربى بكافة توجهاته العقلانية أو المادية الوضعية بمثابة انحياز ضد الذات الحضارية الإسلامية، وذلك لتناقض المقولات بين الثقافات وتعارضها من جهة ولكون دعوى الموضوعية وصفة العلمية قد انكشف زيفها. وأن هذا النموذج لا يعدو كونه منتميا للخصوصية الثقافية والمرجعية القيمية الغربية بل وحتى الراهنية الظرفية بحث لا يتواءم هذا النموذج مع غير ظرفه الزمنى في بيئته فضلا عن البيئات الثقافية المعايرة.

وعلى حد ما قاله (**أبو يعرب المرزوقى** 1999، ص.21) : "فإن عوائق النهضة ليست نابعة من أخطائنا في تصورنا ذاتنا فحسب أو في تبنينا لتصور غيرنا لها، بل هي نابعة من تصورنا لغيرنا ومن تصور غيرنا لذاته ."

ولا شك أن نتيجة أخطاء التصور لذاتنا يؤدى حتما إلى طواعية الإسار في قيد التبعية، ونظن أن التقدم والريادة والفكر المؤسس للتفلسف والتطور وتغيير الواقع مرتهن بتتابع المضي حثيثا على المنهج الغربى، وانحسار الجهد في استيراد نظرياته وفلسفاته . إذا كان لكل مجتمع تحيزاته فما حدث أن كثيرا من شعوب العالم بدأت تتخلى عن تحيزاتها النابعة من واقعها التاريخى والإنسانى والوجودى وبدأت تنظر لنفسها من وجهة نظره. ن الأمة مهددة بسبب تبنيها لنماذج ورؤى الآخر دون إدراك عميق أحيانا للتضمينات المعرفية لهذه النماذج (باختصار وتصرف: المسيري، 1997، ص.4,3)

- **ثانيا: تأسيس فقه التحيز ممانعة ونقدا**

يرى (**عبدالفتاح**. سيف الدين، 1997، ص.289) أن معالجة موضوع (التحيز) في التحليل السياسى أو أي من المجالات المعرفية المختلفة في الاجتماع والاقتصاد والنفس.... إلى آخره. أي العلوم الاجتماعية والإنسانية عامة فإن ذلك يشير إلى موضوع ممتد يمكن من خلاله الكشف عن التحيز في هذا المجال أو ذاك، وتحديد أنماطها وأشكاله وحصر نماذجه، والتوجه إلى تلمس مسبباته والتعر ف على قاابلياته والبحث عن اآلياته ووسائله وإمكانات سد ذرائعه، وفتح سبل الكشف عنه، والوعى به كمقدمة لمواجهته بل وربما يؤدى البحث إلى تأسيس نموذج بنائى يخالف نموذج التحيز

كل تلك عناصر ذات أهمية تشير إلى قضية من أهم القضايا المعرفية والبحثية تستحق أن يؤسس الدارسون لها علما، وأن يتلمسوا لها فقها.

ربهذا القول وغيره بات الاتجاه واضحا نحو وضع أساس لعلم يهدف إلى الحفاظ على الهوية الحضارية، يتعامل مع إشكاليات التحيز واستقطاب النماذج المعرفيه للواقع الوجودى الغربى، وتركزت المساعي نحو وضع علم له أسسه وآلياته ومناهجه ومرجعيته للتعامل مع قضية التحيز حفاظا على هوية الأمة وبيانا للمغايرة المعرفية والحضارية – كما تفعل كل الثقافات التي تحمي أنماطها من الذوبان – وتحديد مواضع التفاعل ومواقع الممانعة

وقد حاول (**المسيرى**) أن يؤسس لتخصص جديد يركز على قضية الهوية حفاظا على الأمة من الذوبان والانخداع بالآخر أو الجهل بخصوصيتها ورأى أنه من المناسب تسمية هذا التخصص (فقه التحيز)، باعتبار أن الفقه قائم على البعد الاجتهادى والحتمالى والإبداعى للمعرفة بخلاف العلم الذى يفيد القطع واليقين.

وهذا الفقه الذى يسعى البعض لاستنباته يرمى إلى هدفين كبيرين هما:

- الممانعة من التلاشى والذوبان المفضى إلى طمس الهوية، وفقدان الذات الحضارية.
- إقامة منهجية نقدية تتخذ من فقه التحيز أداة تفسيرية ونماذج تحليلية نقدية لاكتشاف القيم الكامنة التي تتنافى ومعاييرنا الثقافية ومنطلقاتنا الإيمانية.

التحيز حتمية ممانعة

في عالم يعج بثقافات متنوعة، وأطر معرفية متمايزة، ونماذج إدراكية متباينة فإن عدم معرفة ما يجب الانتماء إليه والأخذ به والمضى عليه لا يعنى سوى الوقوع فريسة للثقافات الغازية بإمكاناتها الساحقة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا وإعلاميا

عند ذلك لا يمكننا إلا التحيز كضرورة لتفادى الذوبان وتجاوز التلاشى في الغير.

وكما يرى)**عبدالرحمن. طه** 2005، ص.82) "فإن الغرب يسعى سعيا حثيثا ومحموما من أجل إخضاع الشعوب الإسلامية لسياسات تربوية وتعليمية تعزز استيطان الغرب فينا وسلطانه في عقولنا، وتنال من القيم الإيمانية والأخلاقية التي تحملها ثقافات هذه الشعوب والتي تبقى على صلتها بعالم الآيات في الكون".

إننا والحال هكذا بحاجة إلى التحيز الثقافي الممثل لوجودنا المعرفى. والحضارى لنتأبى على تلك المحاولات الدائبة بصورها الخفية في أكثر الأحيان والمعلنة حينا. والتحيز ضمانة نتحصن بها من أن نكون فريسة مهيضة لديها قابلية الاستعمار الثقافي والغزو الفكرى.

ولا ريب أن قضية التحيز في المنهج والمصطلح هي إشكالية تواجه أي دارس في الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكنها تواجه المثقف في العالم الثالث بحدة، فهو ينشأ في بيئة ثقافة لها نمتذجها الحضارية والمعرفية المختلفة.

ولكنه مع هذا يجد نماذج أخرى تحاول أن تفرض نفسها على مجتمعه وعلى وجدانه وفكره. منذ نهاية القرن الثامن عشر ومع انتشار التدريجى للإنسان الغربى في العالم من خلال التشكيل الاستعمارى، وقيامه بتدويل

نماذجه الحضارية والمعرفية بدأ أيضا مايسمى بالغزو الثقافي وهو محاولة الإنسان الغربى فرض نماذجه الحضارية على شعوب العالم. (**المسيري**، 1998، ص.3).

وأمام هذا التحدى لا سبيل لمواجهة تلك الثقافات الضاغطة بنماذجها ومناهجها إلا بالتحيز للمنهج الإسلامي وإبداع النماذج البديلة التي تحمل سمات الإسلام ومعالم الوحي السماوي. وليس هذا التحيز سبيلا للممانعة من الذوبان والتلاشى فحسب بل هي السبيل الوحيد للنهضة الحضارية الكبرى شريطة الإبداع الفكرى واستحداث مناهج ونماذج مستنبة من الإسلام بمصدريه الخالدين ؛ حتى لا نظل في وضعية التابع البائس المستنسخ لتجارب الآخرين في بيئة لا يناسبها غير الإبداع الأصيل وفق الخصوصية الثقافية والحضارية.

التحيز منهجية نقدية

إن فقه التحيز يستطيع أن يقدم للباحث أداة منهجية يمكنه من خلالها أن يقلل من تحيزاته هو وينمى عنده قدرة وقابلية على الاستقامة، طالما أدرك أبعاد التحيز ومواطنه ومداخله، ومن ثم يقترب الإنسان من الحقيقة بدرجة أكبر بقدر ما تتيحه الطاقة البشرية. (العلواني. طه جابر، 1998).

هذا من جهة الذات الواعية بتحيزاتها، ومن جهة هذا الوعى بالتحيز في المناهج تتولد منهجية نقدية قادر على إدراك التحيزات والاستعارات والقيم الكامنة في مناهج البحث وأدوات القياس ومعايير الاستدلال الوافدة، وهذا يقينا يوتي ثماره على مستوى نقد دعوى الموضوعية.، وكشف خصوصية ونسبية المناهج ويمنع من الاندفاع في استعمال الأدوات والمقاييس دون وعى بمضامينها.

وعلى المستوي النقدى والتأسيسي لنموذج إسلامى ترى (عزت. هبة رؤوف 1998، ص.744) " أن مراجعة الإطار المعرفى وفلسفة العلم تعد أهم مداخل تطوير وتقويم النظرية الاجتماعية المعاصرة وهذا المدخل الذى يكشف تأسيس العقلانية الغربية على السببية الصلبية وتهميش دور القيم واستبعاد الوحى كمصدر للمعرفة، مما أدى في النهاية إلى العدمية في شتى المجالات ".

ثم إن إدراك التحيز في أي مستوى من مستوياته الظاهرة أوالكامنة – الإيجابية أو السلبية – من شأنه أن يسهم بدرجات متفاوتة في نقد المنهج والنتائج والمقولات المرتبطة بالعلوم الاجتماعية الغربية التي تضفى على نفسها صفات الحياد والموضوعية.كما يسهم في الوصول إلى فهم أفضل لواقع مجتمعاتنا العربية والإسلامية

وقضاياها.ويسهم أيضا في تطوير علومها الاجتماعية على نحو يتلاءم مع هذا الواقع بحيث تكون متحيزة له لا ضده.(غانم. إبراهيم البيومي، 1997، ص.682).

النموذج المعرفي الإسلامي ضرورة الإبداع وسماته الثقافية

في غمرة الانجرار خلف النماذج المعرفية والمناهج الغربية صار الفكر الإيمانى بمفاهيمه وقيمه بعيدين عن توجيه المسار العلمي للدرجة التي يصفها (**عبدالرحمن. طه** 2021، ص.287) بقوله: "المعاني الإيمانية لم تَعُد تُوجِّه مفاهيمنا الفكرية ناهيك عن أن تُسهم في توليدها وبلورتها، بعد أن كان الإيمانُ أساسَ رؤيتنا إلى العالم ومفتاح صناعتنا للتاريخ؛ وهكذا لم نعُد نُفكِّر بواسطة إيماننا، بل لم يَعُد الإيمان يفكِّر بين أظهرنا..." (ص.287).

ويرى (**عمارة. محمد** 1998،ص.50) أن " قمة مأزقنا الحضاري هي الفقر في الإبداع والإسراف في التقليد وإذا كان التقليد للسلف والقريب يصيب عقولنا بالكسل ويشيع روح الاستهلاك لبضاعة الآخرين فلا اجتهاد مع نص غربي بدل من معاناة الإنتاج فإن طرق نجاتنا من هذه المأساة هو إحلال الإبداع والتجديد محل الجمود والتقليد".

ومن هذا المنطلق أراد المفكر الإسلامي **(مالك بن نبى)** التنبيه على وجوب ابداع بدائل فكرية ومناهج علمية مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدل استيرادها من الغرب.

وذكر أن الاستقلال الفكرى في تناول مشكلاتنا الحضارية وأوضاعنا الاجتماعية أهم ما يجب الانطلاق منه كبداية صالحة ومناسبة لخصوصيتنا التي تميزنا. وحول ذلك يقول: " لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخياراتها، وخيار العالم الغربى ذي الأصول الرومانية الوثنية قد جنح بصره إلى ما حوله نحو الأشياء. بينما الحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسل سبح خيارها نحو التطلع الغيبى وما وراء الطبيعة نحو الأفكار ". (مالك بن نبى،2002، ص 168)

ومن ثم فإن ضرورة إبداع هذه الأطر المعرفية ذات البعد الثقافي القيمى الإسلامي باتت ملحة إلحاحا لا يقبل تأجيلا، وذلك من منطلق أنه لا توجد نظريات معرفية أو نماذج كلية أو قيم ثقافية لها صفة العموم والموضوعية، فكل ما هو موجود في البيئة العلمية يعكس خصوصية المنبع، حتى وإن – بفعل التحكم السياسى والإعلامى – تم ترويجه تحت مسمي العلمية والموضوعية، فهى ليست محايدة وفيها من المضامين

الكامنة ما يوجه الباحث ويؤطر رؤاه، ممايعود على الخصوصيات الثقافية المستبعدة من طرح معارفها والغائبة عن المزاحمة بقيمها بالضمور والتلاشى، في المقابل تأخذ النظريات المعرفية المسيطرة من دعوى الواقعية والكونية ما ليس في بنيتها ولا تعرفه نماذجها.

وهذا المتطلب الداعى لإبداع نماذج معرفية ومناهج نابعة من خصوصيتنا أجمع عليه عدد كبير من الأصلاء في مضمار استئناف القول الفلسفى العربى اليوم، والداعين لقومة أو نهضة عربية إسلامية حيث أجمعوا أنه" لا حياة لنهضة بدون تحيز وزُيّال حضارى تفاديا للذوبان والتلاشى في المحاولات اليائسة لاستنساخ تجارب الآخرين ونماذجهم التي تستلزم منا في الواقع العملي إعدادا ثقافيا لدرء التنميط والتلبيس والتصدع ". (مقبول. إدريس، 2010).

سمات النموذج الإسلامي البديل

غلب على المفكرين الذين انشغلوابالنموذج البديل تسميته (النموذج التوحيدى) نسبة إلى عقيدة التوحيد التي يستقى منها سماته وأهدافه وذلك في مقابل النموذج الواحدى المادى الاختزالى العلمانى.

والنموذج الإبداعي في الثقافة الإسلامية يجب أن يستند إلى مبدأ خارج عالم الطبيعة والمادة والحواس الخمسة، وهى في النظم التوحيدية (الإله المنزه) عن الطبيعة والتاريخ الذى يحركهما ولا يحل فيهما. (المسيري. 2002، ب، ص217).

وعبى حد وصف وإسهام (عزت. هبة رؤوف، 1998، ص.745) فإن من سمات هذا النموذج المعرفى التوحيدى أنه متعدد المستويات التى يمكن لهذا النموذج الإسهام فيها:

- فهناك مستوى (المسلمات والمنطلقات) بإضافة عنصر الوحى لمصادر المعرفة.
- وهناك مستوى (المنهج) من خلال توحيد منهج النظر ومرتكزات الوعى والإدراك والقيم الموجهة وربط المجالات العلمية المختلفة بعضها بعض.
- وهناك مستوى (التحليل) حيث يمكن إعادة تعريف يعض الظواهر وإعادة صياغة المقاييس والمؤشرات المستخدمة فى تحليل كافة الظواهر وفق هذا المنهج التوحيدى.
- ومستوى (الغايات والمقاصد) بتحديد رسالة العلم وهدفه والتركيز على تقويمه للواقع ونفعه للناس.

"ومن السمات أيضا أنه يجب أن يكون الإبداع في مجال النماذج والمناهج المنبثقة عن التصور الإسلامي لا يفصل النشاطات الإنسانية عن المعايير الأخلاقية والإنسانية لأن ذلك يؤدى إلى ضمور المرجعية الإنسانية واختفائها". (المسيري، 2002 ب، ص.7).

كذلك فإنه من سمات هذه النماذج الحضارية الإسلامية أن تكون نماذج إنسانية وليست مادية نفعية، نماذج تقوم مستندة لمقولات إيمانية تتراءى دلالاتها على صفحة عقل مؤيد وليس عقلا أداتيا فارغا من المثل والقيم، وهى نماذج توليدية إبداعية لا مجرد تلقى خامل تراكمى له صفة الجمود، إنها نماذج تقبل الاجتهاد وتتجدد في وعائه، وهدف هذه النماذج الإسلامية البديلة ليست السيطرة والسعى بشتى السبل لإخضاع المغاير الحضارى لقيمها لكنها تهدف إلى التوجيه نحو القيم الإيمانية العليا والتصورات العقلية المنضبطة ليس طلبا للسيطرة بل الإرشاد والتوجيه.

الخاتمة والتوصيات

لقد بات واضحا ان العقل الغربي تحيز تحيزا عقلانيا للمادة المحسوسة المحدودة، واحتفى بالكمي في الإنتاج والاستهلاك وما عاد يدرك من الحياة سوى ما يجلب اللذة ويحقق المنفعة، وقد انطلقت نظريته المعرفية ونماذجه الكلية من أصول مادية لا ترى غير السببية الصلبة ولا تدرك إلا ما يقع تحت حواسها بامتداداتها الآلية، فجاءت نماذجها الجزئية ومقاييسها وادواتها في نطاق هذا العقل المادى ولا تؤمن بما يجاوزه من معاني وما لا يقع في نطاق الوجود العيني.

وحين نواجه هذا العقل المادي فإننا لسنا ضد العقل بمعناه الأعم، بل نحن ننتصر للعقل المركب الذى يدمج بين المثالية الفطرية ومعطيات الحس، ويرى الوجود في بعده المرئى والماورائي، ويحتكم للقيم ويعظم البعد الروحي في الإنسان، وهذا يدفعنا لإعادة النظر في كل ما يمت بصلة للنموذج الغربى لنتحسس تحيزاته ولنحذر من القيم المادية الكامنة التي تتناقض ومعتقداتنا وثقافتنا وحضورنا الوجودى.

وما ورد في طي هذه الصفات من محاولة لدراسة التحيز والموضوعية نستطيع أن نقف من خلاله، وكذلك ما أحالت الدراسة إليه من مراجع تخصصت في تلك الإشكالية على أن التحيز أمر يجرى في النظريات والمناهج والنماذج بلا تكلف أو قصد لأنه بلا تحيز لا ندرك الوجود ولا نحصل على رؤية، فالقيم الثقافية هي ما تعطي المعنى وتوجه البحث وتؤثر في النتائج، وأما عن الموضوعية فهى خارج العلوم الطبيعية أمر

عزيز المنال صعب الميراس ممتنع ومتأبى عن الانقياد، وحسبنا من الموضوعية أن نحاول التزامها ما استطعنا ولو بإظهار القيم التي ننحاز إلها، حتى – على الأقل – لا ننحاز إلى ما هو أبعد ونقف عند حدود القيم ويحدث الحوارعلى أساس نقاط اتفاق والرصد الصحيح للمواضع.

وفى ختام البحث فأهم ما يطرح من توصيات ان نجتهد في رصد القيم الكامنة المتحيزة للنموذج المعرفي الغربي، الذى أصبح اللحوق به في الذهنية الثقافية العربية أهم تصورات التفوق والتقدم والريادة، والذى أصبحت خطوات أي مشروع نهضوى في واقعنا تترسم خطواته، ولذا وجب أن نحاول تصحيح المسار من جهة بكشف تحيزات هذا النموذج وقيمه الكامنة ذات القطيعة المعرفية مع مكوننا الثقافي وبعدنا العقائدي، ومن جهة أخرى يجب بذل قصار الجهد الجماعي للإبداع الفكري لبلورة نماذج معرفية لها سمات عقيدة التوحيد وخصوصية الثقافة، ولها من التفوق العلمي والعملى ما يمنح الدراسات الإسلامية للعلوم الإنسانية ثراء ورصانة.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين

المراجع والمصادر

القرآن الكريم

- شحاتة. حسين، النجار. زينب **2003 معجم المصطلحات التربوية والنفسية** ط.1 الدار اللبنانية القاهرة
- عبد الرحمن. طه 2005 الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري ط2 المركز الثقافي العربي.
- عبد الرحمن. طه .2021 المفاهيم الأخلاقية بين الائتمانية العلمانية. الرباط دار الأمان.
- عبدالفتاح. سيف الدين 1997 **مقدمات أساسية حول التحيز في التحليل السياسى من منظور معرفى وتطبيقى** بحث ضمن سلسلة المنهجية الإسلامية (9) إشكالية التحيز جـ 2 المعهد العالمي للفكر الإسلامي– فرجينيا. .

- عزت. هبة رؤوف 1997 **التحيز في دراسة المرأة** بحث مستخلص من كتابات د منى أبو الفضل بحث ضمن: سلسلة المنهاجية الإسلامية (9) إشكالية التحيز جـ 2 المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا.
- العلوانى. طه جابر 1886 **تصدير سلسلة المنهجية الإسلامية (9)** إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد. جـ 1 المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا.
- عمارة. محمد 1998 الإبداع الفكرى والخصوصية الحضارية دار الرشاد.
- غانم. إبراهيم البيومي. 1997 إشكالية التحيز في فكر أربعة مفكرين مصريين (د. جلال أمين – أ. طارق البشري – د. عبدالوهاب المسيري – د. سيد دسوقي) بحث ضمن سلسلة المنهجية الإسلامية (9) المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا.
- قنصوة. صلاح 2007 الموضوعية في العلوم الإنسانية (عرض نقدى لمناهج البحث) دار التنوير.
- مالك بن نبي 2002 مشكلات الحضارة – تأملات دار الفكر المعاصر – بيروت.
- المرزوقي. أبو يعرب 1999 آفاق النهضة ومستقبل الإنسان في ظل العولمة جـ1 دار الطليعة – بيروت.
- المسيري. عبدالوهاب 1996 إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد سلسلة المنهجية الإسلامية (9) المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا.
- المسيري. عبدالوهاب. 2002 (أ) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان دار الفكر – دمشق.
- المسيري. عبدالوهاب 2002 **(ب)** اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود ط1 دار الشروق – القاهرة.
- مصطفى. نادية 1997 الدولة العثمانية (أبعاد التحيز في النظام الدولي وفي دراسات التاريخ الإسلامي بحث ضمن: سلسلة المنهجية الإسلامية (9) جـ 2 المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا.
- المنصوري. المبروك الشيباني 2014 صناعة الآخر: المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا مكتبة مؤمن قريش.

المراجع الأجنبية

- Nagel, E., The Structure of science, New ~ork: Harcourt, Brace and world, 1961

- Mydral, Gunnar, Objectivity in social research, London, Gerold Duckworch and Co. L. T. D., 1970.
- Myrdal, G., An American Dilemma, Harper and Raow, pub- lishers, **1962 A**
- Myrdal, Gunnar, Value in social theory, London, Routledge and Kegan Paul, second impression **1962 B.**
- Parsons, T., The structure of social Action, New York; free press, 1968
- Weber, M., The Methodology of the Social Science trans and edited by Edward A. Shils and Henri A. Finch, The free press, Glencoe, Illinois, 1949.

مراجع مترجمة

- تورين. آلان 1994 نقد الحداثة ترجمة: عقيل الشيخ حسين. مجلة المنطلق الجديد عدد [108_109]
- لايكوف. جورج ، جونسن. مارك .2009 الاستعارات التي نحيا بها ترجمة: عبد الحميد جحفة دار توبقال.

مواقع على الشبكة الدولية

- الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية : https://www.politics-dz.com/
- مقبول. إدريس، 2010 نقد مسلمات الفلسفة الغربية شبكة ضياء للبحوث والمؤتمرات: https://diae.net/313/.